صورة غَزو أَبرهة لِمكَة في الشِّعر الجَاهليّ

كريم أحمد زيدان أبو سمهدانه

أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية، كلية الآداب
جامعة جازان، المملكة العربية السعودية

الملخص

تتحدث الدراسة عن حدث سياسي، وعسكري، وفكري، وديني هدد عمق الجزيرة العربية قبل الإسلام، تمثل في غزو الأشرم لمكة المكرمة، ومن هذا الجانب أتت فكرة الدراسة، لتقف على صدى هذا الحدث في الشعر الجاهلي، وكيفية تصوير الشعراء الجاهليين المعاصرين له، فسارت الدراسة لبيان ذلك على المنهج الوصفي التحليلي للوقوف على هذه الصورة، فتطلب تقسيم الدراسة إلى أربعة أقسام؛ الأول: المدخل اللغوي والأدبي، ففيهما تمت مناقشة الدرالة اللغوية والاصطلاحية للفظ مكة عند أغلب الدارسين قديماً وحديثاً، لبيان مدى علاقة اللفظ بالمعنى الدلالي، والثاني: بيان صورة مكة وأهميتها عند الإنسان العربي الجاهلي من خلال بعض النماذج الشعرية الدالة قبل غزو الأشرم لها.

الثالث: توضيح دوافع الغزو المعلنة وغير المعلنة لمكة من قبل الأشرم، مع بيان الحالة العربية في مواجهة هذا الحدث الكبير، الذي يتهدد كيانهم ووجودهم، والرابع: تفصيل صورة وصدى الغزو بكافة جوانبه العسكرية، ليتفرع عنه مجموعة من الصور الشعرية: صورة جيش الأشرم، وصورة هزيمة الجيش، وصورة الفيل الذي شارك في الغزو، وصورة المتعاملين من العرب مع الأشرم، وبعد ذلك الخاتمة التي أثبتت النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

المقدمة

الحمد لله الَّذي علا زجل الملائكة في عالم الملكوت بحمده، ونظمنا في سلك العبودية فوقف كل منا متأدباً عند حده، أحمده حمداً يقوم وزنه بالقسط ولا يخسر الميزان، وأشكره شكراً تقوم لنا بركته بمعرفة قواعد الإيمان. . . . أمَّا بعد:

فنجد بين الأدب والمكان صلة وثيقة لا تنفصم مهما تعاورتها أيدي الزمن، هذه الصِّلة هي كصلة الشَّذا بالزَّهر، والنُّور بالضوء، والحرارة بالنَّار، فصلة مكة وصورتها في الشعر العربي الجاهلي تبدأ من رحلة أبي الأنبياء إبراهيم - عليه السلام - إليها، حيث أسكن فيها زوجه هاجر وابنه إسماعيل، ثم بنى معه الكعبة المشرفة، ودعا الناس إلى الحج إليها، ومن هذا تجلت قيمتها التَّاريخية والدِّينية، هذه القيمة لم تنفصل عنها في وقت أزماتها، وتهديدها بل زادها قدسية إلى قدسية. فمكة وما فيها من أماكن مقدسة في العصر الجاهلي كانت محط أنظار العرب في شتى بقاع الجزيرة العربية يحجون إليها تقرباً إلى الله - عز وجل - على الرغم من وثنيتهم، فيها يجار المظلوم والخائف، كيف لا وهي محط أنظارهم ومهوى أفئدتهم، ومحط أنظار أعدائهم المتربصين لها الشر إذا سمحت لهم الفرصة، فها هو أبرهة الأشرم، يُجهز من اليمن كل وسائل القوة لهدم البيت ومكة، وهدم كل قدسية لهذا المكان، بل هدم كل قيمة للوجود العربي ليلحقه بالتبعية، فمن هذا الجانب جاءت فكرة الدراسة للوقوف على صورة مكة وصداها في الشعر الجاهلي في أثناء حملة الأشرم عليها، التي لم يتعرض لها أحد من الدارسين قديماً أو حديثاً إلا ما تناثر هنا وهناك عند بعضهم من إشارات.

لذلك سارت الدراسة لبيان هذه الصورة على المنهج التاريخي - بالإضافة إلى بعض إضافات المنهج النفسي والتحليلي، والبنيوي - الذي اعتمد على مجموعة من الدراسات النقدية، والبلاغية، والتاريخية، والأدبية، فَقُسمت الدِّراسة تبعاً لذلك إلى مقدمة، ومدخل لغوي وأدبي، وصورة مكة قبل غزو الأشرم، ثم عرجت الدراسة وبينت الدوافع المعلنة وغير المعلنة للغزو، وصورة

مكة في أثناء الغزو وبعده، فمنها صورة الأشرم وجيشه، وصورة الفيل المصاحب للحملة، وصورة الهزيمة البشعة التي لحقت بالأشرم وجيشه، وصورة المتواطئين مع الأشرم، ثم جاءت الخاتمة للدراسة في النهاية. راجياً من الله – عز وجل – التوفيق والسداد في الدارين.

أولاً: المَدخل الأدبيُّ واللُّغوي

أ - المَدخل الأدَبيّ

لقد تطوّرت صورة المكان في الشِّعر العَربيّ الجَاهليّ بتطوّر تجلِّياته في إحسَاس الشَّاعر المبدع للنَّص الشِّعري الطَّويل أو القصير، فالصُّورة المكانيَّة تتطوّر بتطوّر المَكان نفسه، حيثُ التَّقدم الَّذي يَشهَده مِن جِهة، والوَعي الاجتِمَاعيّ للمُعطى الحَضاريّ مِن جِهةٍ أُخرَى، لِذَلك أَخذتْ (مكَّة) فِي الشِّعر الجاهليِّ دِلالة تَفصيليّة عَلى غَيرها مِن البُلدَان والأَماكن؛ فَهي دِلالة تُحيل لَدى المُتلقي الصُّورة الذِّهنيّة، بِبيان المَكانة الأُولى الَّتي تَحتلها (مَكَّة) بِمُوجب هَذه النُّصوص الشِّعرية، والتَّاريخية، والدِّينية، فَهي أوّل بَيت وُضع للنَّاس فِيها، وَعَاصمة الجَاهليين فِي عَصرِهم، فَتَاريخها مُنذ القِدم نَاطق بِهَذه المَركزيّة فِي المُستوى المَدنيّ تِجارة، وَثَقافةً، واجتماعاً، وَسِياسة.

فإذا أَردنا أنْ نتعرَّف (مَكَّة) لا بدَّ من ابتداءِ المَعرفةِ انطلاقاً مِنْ البَديهة التَّعريفيّة الَّتي تَرى فِيها مَوضوعاً، أوْ مَكاناً، أو بُقعة ارتَسمت عَلى خَريطة جُغرافيّة مَا، إلَّا أنَّ المَوضع، أو المَكان، أو البُقعة نَجده حَاضراً فِي الذِّهن مَعرُوفاً، أو بَارزاً فِي الذَّاكرة، وبَين الذِّهن والذَّاكرة الشِّعريّة كَما يَقولُ النَّجار: "تقوم وَشيجة مع اللُّغةِ الَّتي مَنحت ذَلك المَكانِ سِمَة(العلميَّة) وحوَّلته إلى مُصطلح مُنفرد وَرَئيس لَهُ اشتقاقَاته فِي اللُّغة"[1]، والاشتقاق في عُرف أَهل اللُّغة – كَما يَقول (ابن فَارس) – : "أَخذُ صِيغة مِنْ أُخرى مَع اتّفاقهما مَعنى، وَمادَّة أصليَّة، وَهَيئة تَركِيب لَها لَيدلّ بالثَّانية عَلى مَعنى الأَصل بِزيادةٍ مُفيدةٍ"[2]، وَاشتِقَاق الاسم بِهَذا المَعنى الَّذي يُقدّمه (ابن فَارس) لَا يَعني البَتَّةَ أنَّ الاسمَ الأوّل سَابق للثَّاني فِي الوُجُود فَيكون علّة له، أوْ أنَّ الثَّاني مُتأخر فِي الزَّمان عَن الأوّل. بَلْ يَعني الأَسبقيّة المَنطقيّة الَّتي يُنظمها

الذِّهن مِن قَبيل أَسبقيَّة البَسيطِ عَلى المُركَّب والسَّهل عَلى الصَّعب، وَهَذا مَا سَنجده فِي المَدخل اللُّغوي لِدلالة لَفظِ (مَكَّة).

ب - المَدخل اللُّغويّ

يَرتَبط لَدى مُؤسّسيّ الفِكر اللُّغوي عِندَ العَرب قَديماً وَحديثاً، مَبحث الدِّلالة اللُّغويَّة بِتصوّر شَامل لأَصنافٍ شتَّى مِن الدِّلالات الَّتي تَقوم فِي جَوهرها عَلى فِكرة الإفضَاءِ إلى حَقائق الأَشيَاءِ، أوْ المَدلولات والمَعَاني بالاعتمادِ عَلى أَنواعٍ مِنْ الأدلَّة وَالبَراهين الَّتي تُؤيّد هَذه الدِّلالة اللُّغويَّة[3]، وَمن هذه الأَلفاظ الَّتي تَناولَها أَهلُ اللُّغة، والتَّفسير، والأَدب لَفظ (مَكَّة). فالأَصل اللُّغوي لِهَذا اللَّفظ نَجد لَه اشتقاقات مُختلفة، فيقول الرَّاغب الأَصفهانيّ: "اشتقاق (مَكَّة) مِن تَمككت العَظم أَخرجت مُخه، وَأَمتكَ الفَصيل مَا فِي ضَرع أُمه، وعبَّر عَن الاستقصاءِ بالتَّمكك، وَسُميت بِذلك؛ لأَنَّها وَسط الأَرض كَالمخِّ الَّذي هُو أَصل مَا فِي العَظم"[4]، وَيقول أَيضاً فِي مَوضع آخر: "(بَكَّة) هِي مَكَّة بِدليل قَوله تَعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾[5]، وَقيل (بكَّة) هِي بَطنُ مَكَّة، وَقِيل هِي اسم المَسجد، والبَيت، وَمكَان الطَّواف، وسُميّت بِذلك مِن التَّباك أي الازدحام؛ لأَنَّ النَّاس يَزدحمون فِيه للطَّواف، وقيل سُميت (مَكَّة) بَكَّة؛ لأَنَّها تَبكُّ أعناق الجَبابرة إذا أَلحَدوا فِيها بِظلم"[6]. ويقول (الزَّجاجيّ): "فِي اشتقاق (مَكَّة) قَولان، قَال بَعضُهم: هُو مِن قَولِك أَمتك الصَّيف مَا فِي خَلف النَّاقة مِن اللَّبن إذا شَربه أَجمع، كأَنَّها تَجْذب النَّاس إليهَا مِن جَمِيع الآفاق، وَقَال آخرونَ: أَصلُها (بكَّة)، والمِيم مُبدلة من البَاء، وَسُميت بِذلك؛ لأَنَّها تَبُك أَعناق الجَبابرة، أي تَدقّها، وَقَال بَعضُهم: سُميت بِذلك؛ لأَنَّ النَّاس يَتباكون فِيها، أي يَتَزاحمون"[7]. ويقول (الأَنباريّ): "سُميت (مَكَّة)؛ لأنها تَمُكّ الجَبارين؛ أي تُذهب نَخوتهم دُون رَجعةٍ"[8]. ويقول (الحَمويّ)[9]: "سُميت (مَكَّة) بهذا الاسم؛ لأَنَّها تَمُكُّ الذُّنوب؛ أي تَذهب بِها كَما يَمُكُّ الفَصيل ضَرع أُمِّه فلا يُبقِي فِيه شيئاً، وَقيل لأَنَّها تَمُكُّ من ظَلم؛ أي تُنقِصه، وينشد قَول بعضهم:

يَا مَكَّة الفَاجر مُكّي مَكاً ولا تَمكّي مذحجا[10] وَعَكَّا..

ويقول (النَّويريّ): "بَكَّة مَوضع البيت، ومَكَّة القرية، أو الحَرم كُلّه، ومن أسمائها: مكَّة وَبكَّة، وَأمُّ رَحم، وأمّ القرى، والبلد الأَمين، والبَاسَّة، والبَيت العَتيق، والحَاطِمة، والنَّاسة"[11]. ويقول الشَّيخ مَحمد بن عَبدالوهاب: "كانت مكَّة فِي الجاهليّة لَا يقرّ فيها ظُلم ولا بَغي، ولا يَبقى فيها أَحد إلَّا أَخرجه الله مِنها، ولَا يُريدها مَلك يَستحل حُرمتها إلَّا هَلَكَ مَكانه، فَيُقال: مَا سُميت (بكَّة) إلَّا لأَنَّها تَبُكّ أَعناق الجَبَابرة إذا أَحدثوا فِيها"[12]. وَيَقول صَاحب تَفسير التَّحرير والتَّنوير: "إنَّ بكَّة بِالباء اسم مَوضع البَيت خَاصة لا لسَائر البَلد الَّذي فِيه البَيت، وَبكَّة اسم بِمعنى البَلدة وضعه إبراهيم - عَليه السَّلام - علماً عَلى المَكان الَّذي عيَّنه لِسُكنى وَلَده بِنيَّة أَن يَكون بَلداً، فَيكون أَصله مِن اللُّغة الكلدانيَّة لُغة إبراهيم، عَليه السَّلام، وَمنْ إعجاز القُرآن الكَريم هَذا اللفظ ذُكر كَونه أوَّل بَيت وُضِع للعبادة"[13]. هذه إشارة مِن (ابن عَاشُور) وَاضحة فِي دِلالة مَعنَى لَفظِ (بكَّة)، لَم يَسبِقه أَحدٌ إليها مِن قَبلُ، وَهي فِي نَظري أَقرَب إلى الصَّواب مِن الأَقوال الَّتي قِيلت من قِبَلِ أهل اللُّغة، والتَّفسير بِدليل قَوله تَعَالى ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا**﴾، "فالبيت بُني عَلى يَد إبراهيم - عَليه السَّلام -، وَمن هَذا المُنطلق جَاءَ لَفظُ (بكَّة) مُتَوافقاً مَع لُغة وَفكر البَانِي الأول؛ كَون القُرآن يَتحدَّث عَن زَمن إبراهيم، فَجَاء لَهم - للعرب - بِألفاظٍ كَانت دَارجة وَمُستخدمة فِي زَمَنه، وَكَأن هَذا اللَّفظ - بكَّة - هُو اللَّفظ نفسه الَّذي استخدمه إبراهيم، وَمن ثَمَّ تطَّور بَعد ذَلك، فأَبدلت العرب البَاء مِيماً لِيصبح (مكَّة).

وَهكذا نَرى فِيما سَبق مِن الاشتقاقات اللُّغوية تَعدّد أَسماء (مكَّة) مَع تَعدُّد الدِّلالات الطَّبيعيّة، والمعنويّة، والإيمانيّة، والجُغرافيّة، والتَّاريخيّة؛ فالدِّلالة اللُّغوية التَّاريخيَّة لِمعنى مَكَّة - وهي المعنيّة بالدِّراسة - يَكمُن في مَوقعها فِي وَسط الأَرض مِن نَاحية، وَلكَونِها أَقدم حَضَاراتِ الدُّنيا، وَأَشملها طَقساً، وَأكثرها حِراكاً، فَأسماؤُها وَأوسَامها - كَما ذَكرت المَصادر اللُّغوية، والدِّينية، والتَّاريخيّة - جَاءت بأبعادِها الإحساسيِّة الطَّقسيّة كلّها، والمُتمركزة نَحو البَيتِ ومَا فيه، فَهُو أَقدمُ رَصف حَجريّ، أحد الأَشكال المِعمَاريّة عَلى وَجهِ الأَرض، يَحمل مَعنى طُقوسياً دِينياً، كَمَا جَاء فِي هَذه المَصادر التَّاريخيّة[14] والدِّينية

والأدبيَّة.. لِذَلك كُلِّه، هَل شَعر الإنسان الجَاهليّ الَّذي يُؤمن بِمكَّة، وَمَا فِيها مِن قِيمة بِمَكَانة مَكَّة؟، وهل عنده القُدرة أن يُدافع عَنها بِالمَال، والنَّفس، والكَلمة إذا تَعرَّضت للخَطر والتَّهديد؟... هَذا مَا سَنعرضُ لَهُ فِي ثَنَايا الدِّراسة، الَّتي تَكشفُ عَن صورة غَزو الأشرم لمكَّة في الشِّعر الجاهليّ مِن أجل هَدمها، وهدم شَرف العُرُوبة، وَيحوّل وِجْهَتهم الدِّينية، والفِكريّة إلى كَنِيسته الَّتي بَناها، فَهي حَملة مَسيحيَّة تَبشيريّة تُعتبر الأُولى عَلى جَزيرة العَرب.

ثانياً: صورة (مكَّة) فِي الشِّعر الجَاهليّ قَبل غَزو الأَشرم

إنَّ الشّعر الجاهليّ يَحتفي بِمكَّة لا لِكونها عُمقاً تاريخياً فَحسب، ولا بِوصفها مركزاً جُغرافياً "وَسط الكرة الأرضيّة وَمركزها"[15]. بلْ لأنَّها تَحمل مَعنيين وَاضحين: الأوّل اقترابها مِن الأُسطورة وَمنابِعها، وَمؤثراتها الخَياليّة والتَّخيلية، والثَّاني: حِراكها الوجدَانيّ فِي أُسس، ومكامن الذَّات الإنسانيّة العربيّة الجاهليّة، والتَّاريخية القَديمة، وفي تَأكيد دِلالة هَذا التَّعبير يَقول (جَريدي مَنصور): "المَكان يَحمل تَسامي النَّفس الإنسانيّة عند الشَّاعر الجَاهليّ، مِثلما يَحملُ رِثاء المَكان دِلالة الاعتبار إلى جَانب معاني الوفاء، حتَّى يُصبحَ وَصف آثارِه ليس إلّا نَبش الشَّاعر فِي وُجوده"[16]. ولذلك فَقد وَرد اسم (مكَّة) فِي الشِّعر الجَاهليّ، وَكَان مَوضوع اسمِهَا فِي بَعضِ قَصَائده، لِيعبّر الشَّاعر الجَّاهلي مِن خِلال المَوقف الأَدَبيّ عَنْ "وَعي تَاريخيّ بِالمُعطى الاقتِصَاديّ، والاجتِمَاعي، والعَقَدي البِدئِي"[17]، كَما عبّر النَّص فِي الوقت نفسه عَن التَّشكيل الجُغرافي لِمَكَان (مكَّة)، والتَّقسيم الطُبغرافيّ الخاص بها، لِهذا جَاء النَّص الشِّعريّ الجَاهلي كَذلك فِي أُسلوبه البِنائيّ الدَّاخلي مُجرد تَصوير لِمُعطى بَصريّ، أو إحساس بَصريّ يأتي أحياناً فِي بُعدٍ تَارِيخي، وأحياناً أخرى - كَما يَقول (القُرطاجنيّ) -: "آني ليُشكّل وّثيقة تَسجيليّة دُون الحَاجة إِلى رَمْزٍ، أو تَشكِيلات فَنيَّة فِي الصُّورة، أو الصُّور المُتلازمة فِي النَّص"[18].

وهكذا يَقتطف الشَّاعر الجَاهلي إبدَاعه الشِّعريّ، الَّذي يتَّصل بِذكر (مكَّة)، لِيجمعَ جنباً إلى جَنب بين الإِمْتَاع والدِّلالة مِن جِهة، وَليصبح كل

أُنموذج شعريّ يُقدِّمه فِي هَذه الدِّلالة وَثيقة، وَدِعامة تُحاكي الوَاقع، فَهو عَمليّة فَنيّة إبداعيّة إنسانيّة طَويلة مُختصَّة بِمَلامح مُثيرة وَمُؤثِّرة، قَائمة على وظيفة تَعبيريّة دِلاليّة تَربِطُ المُبدع، والعَصر، والمَكان بِالمتلقي، وَمن يُمعنُ النَّظر فِي الشِّعر الجَّاهليّ يَتَأكّد لَه ذَلك، وَمِنهُ قَول (ابن مُضاض الجُرهميّ)[19] فِي المُجتمع المَكيّ الَّذي كَان يَنتمي إليه أَجداده، فَيقولُ:

وقائلةٍ والدمعُ سكبٌ مبادرُ — وقد شرقتْ بالماءِ منها المحاجر
وقد أبصرت حِمَّان من بعد أهلها — ومنها المغاني موحشاتٌ دواثرُ
كأن لم يكنْ بين الحجون إلى الصَّفا — أنيسٌ ولم يسمرْ بمكَّةَ سامرُ
فقلتُ لها والقلب منِّي كأنَّما — تحمَّله بين الجناحين طائرُ
بلى نحنُ كنَّا أهلها وأبادَنا — صروفُ الليالي والجدودُ العواثرُ
فيا نفس لا تفني أسىً واذكري أساً — ليوشكُ يوماً أن تدور الدوائرُ

هَذه الأبيات وَردت فِي أَغلب المَصادر التَّاريخيَّة والأدبيَّة، تَنسبها إلى (عَمرو بن الحَارث بن مُضاض الجُرهميّ)، فَهو مِن الشُّعراء القُدماء المُعاصِرينَ لِزمن سَيدنا إبراهيم- عَليه السَّلام - بحسب الرِّوايات التَّاريخيّة، لكنَّ هَذه الأَبيات فِي بِنائها، لا تَتَجاوز الصُّورة الحَقيقيَّة المَمزوجة بالأُفق الخَياليّ لِوصفِ بَعض المَظاهر الاجتِماعيّة، والحَركيَّة للعِبَادة فِي (مَكةَّ) زَمن بَني جُرهم، وَهي فِي المَقام الّأوَّل تَحسُّر وَأَسى لِفقدِ مَكَانتهم وسيادتهم لِمكَّة - (وقائلةٍ والدَّمعُ سَكبٌ مُبادرُ/ بلى نحنُ كنَّا أهلها) - وكأنَّ الشَّاعر بِذلك يُفصح عَن حَقيقةِ مَصدر السِّيادة، والجَاه للعربيّ القديم، فَلا يَتحقق ذَلك إلَّا لمن مَلك وسَاد فِي مكَّة والبَيت. وَمن هَذه الشَّاكلة نَجد بَعض الأَبياتِ الشِّعريّة، الَّتي تُصوّر حَال مَن افتَخر بِامتِلَاك مَنابع المِياه فِي(مكَّة) لِسِقاية الحَجيج، فَهو مَفخرة بالنِّسبة للإِنسان العَربيِّ الجَاهليّ، وَمن ذلك قَول بَعض (بِني سَهم) حِين حَفروا بِئر الغَمر، فيقول الشَّاعر[20]:

نحنُ حَفَرْنا الغَمْرَ للحجيج — تَـثُـجُّ مـاءً أيـمـا ثَـجِـيـج

فَهذا الوَصفِ لِحفر الآبارِ فِي (مَكَّة)، من أجل سِقاية الحُجاج العَرب،

لا يُغادر فِي شَكلِه، وَبنائه الفَنيّ الحَقيقة الوَاقعيَّة في أَثناء عَمليَّة حَفر (بِئر الغَمرِ)، لَكنَّه يُوفر البَيَانَاتِ اللَّازمة للواقعة التَّاريخية فِي (مَكَّة)، لِهذا يَقول (رفائيل بطي): "الغَالب عَلى الشِّعر فِي الجَاهليَّة هو الحَقيقة والبَساطة"[21] وَمكَّة عِند الجَاهليينَ مُقدَّسة، لَها مَكَانتها فِي قُلوبهم وَوِجدَانهم، لا يُعادلها فِي القُدسيَّة أي مَكان، وَفي هَذا الجَانبِ الدِّلالي يَقول(خَليل عبدالرحمن): "عَلى الرَّغم مِن وُجود إحدى وَعِشرينَ كَعبة فِي جَزيرة العَرب، فإنَّ القَبائل العَربيَّة قَاطبة أَجمَعت عَلى تَقدِيس كَعبة مَكَّة، وَحَرصت أَشدَّ الحِرْصِ عَلى الحَجِّ إليها، لِيَستَوي فِي ذَلك مِن القَبائل مَن كَانتْ لَدَيه كَعبة خَاصة مِثل غَطَفان أَمْ لا"[22]، والشُّعراء الجَاهليونَ سَاروا عَلى هَذا النَّهج لِقُدسيَّة مَكَّة، فَأقسموا بِها، وفي بَيتِها، فَيقول (زُهير) فِي دِلالة ذَلك[23]:

فأَقْسَمْتُ بالبيتِ الذي طافَ حَوْلَهُ رجالٌ بَنَوْهُ مِنْ قُريشٍ وَجُرْهُم
يَميناً لَنِعْمَ السّيدانِ وُجدتُما على كل حالٍ من سَحيلٍ وَمُبْرَم
تَداركتُما عَبْساً وذُبيانَ بَعْدَمَا تفانَوا ودَقُّوا بينهمْ عِطْرَ مَنْشِم
عَظِيمَيْنِ في عُلْيا مَعَدّ وغيرِها ومَنْ يَسْتَبِحْ كَنْزاً مِن المجْدِ يَعْظُم

فَالقَسم المُرتبط بِالبيت الَّذي يَذكره (زُهير) فِي مُعلَّقته (فأَقْسَمْتُ بالبيتِ الذي طافَ حَوْلَهُ) تَعظيم للبيت نَفسِه وَمَكانه، لِيُحدِّد مِن خِلالِه فِي الجَانب الدِّلالِي عِلاقَة الألفاظِ بِالأشياء، وَخَاصة المَخصوص بِالمدح ـ (هرم بن سنان وصاحبه) ـ هَذا مِن جَانب، وَمن جَانب آخر القَسم يُحدد رَوابط الأَلفاظ بَعضها بِبعض، لِيدل بِذلك عَلى امتدَاد الصَّوت واتساعه وَشُموله، فَينقل بِصدقٍ كما يقول (فايز الداية): "شُعور الشَّاعر اتِّجاه رَمزيَّة المَكان وَقُدسيّته الَّذي أَقسمَ بِه"[24]. فَمَكَّة عِند (زُهير) وَغَيره مِن شُعراء الجَاهليَّة، لَمْ تَعدْ وُجوداً طَبيعياً فَحَسب، بَلْ تَحوَّلت عِندهم إِلى وُجود ثَقافيّ بِوَصفِها السّجل القائم لِذاكرة تَاريخيَّة يَمْنحها دِلالات وَمَعاني كَثيفة، تَمتحُ مِن عُمق الوِجدان العَربيّ الجَاهليّ، فأَضحَى هَذا الوُجود الثَّقافيّ زِيَادة عَلى مَا ذُكر، خِزانة وُجدانيّة غَنيّة بِالدِّلالاتِ الَّتي لَا تقفُ عِند الذَّات الفَرديَة، بل تَتَجاوَزها إلى الجَمَاعة وَالمَكان

إلى التَّاريخ والأَرض والسَّماء، وَهذا الحِراك الأَدبيّ الجَاهليّ الَّذي سَبق غزو الأَشرم لِذكر مَكَّة، يشكل مِن جَانبٍ آخر الإِرهاص لِميلاد التَّفجر الإِبداعي، الَّذي يُغني الرُؤية العَربيَّة فِي تَجربَتها، وَكَينونتها الذَّاتية رُوحياً، وَمعنوياً فِي استلهَام مَا بَعد المَعنى، أيْ تَجاوز التَّاريخ، والجُغرافيا الخَاصين بمكَّة كَمَكان جُغرافيّ، وَدينيّ، وَحَضَاريّ؛ لأنّه مُترسّخ فِي عُمق الذَّاكرة العَربيَّة الجَاهليَّة وَلا يُمكن نِسيَانه – إلى دَفق مِن الرُؤى مَصوغة إبداعياً، لِتُعطي تَجلياً تَبادلياً بَين الذَّات وإِناء الجَسدِ، أو بتعبير آخر تبادل الإِحساس بِالمَكان بَين العَقل كَمعرفة، والعَينِ كَشاهدة، والرُّوح كَحَاضنة وَمُنتجة للأَحَاسيس وَالمَشاعر المَمزُوجة بِالوَاقعِ. وثَمَّة أُمور يَجِب التَّركيز عَليها فِي هَذا الجَانب:

أَولاً: الإِبدَاعات الشِّعرية الجَاهليّة، الَّتي تَقفُ عَلى ذِكر مَكَّة فِي حَالِ الأَمن والرَّخَاء قَبل غزو الأَشرم، تُثبت أنَّ الشِّعر الجَاهليّ عَملية فَنيّة إبداعيّة فِي المَقام الأَوَّل، إنسانيَّة طَويلة مُختصة بِمَلامَح مُثِيرة، وَمُؤثرة فِي ذِكْر قُدُسيَّة وَمَكانة مَكَّة عِند القَبائل العَربيَّة عَامة وَقُريش خَاصة، قَائمة عَلى وَظيفة تَعبيريَّة دِلالية تَربط المُبدع، والعَصْر، والمَكان بِالمتلقي الحَاضر والغَائب للعمليَّة الإِبداعيّة.

ثَانياً: الشِّعر الجَاهلي بِهَذه القُدرة التَّسجيليَّة يُعتبر مَادة الاتصال والتَّواصل فِي زَمنه، ليُعبر تَعبيراً تاريخياً، أو تَعبيراً مُتطوراً يَتجلَّى بَأشكالٍ مُتعدِّدة وَمُتجددة، يَكتَنزُ بِمضَامين مُتغيرة، بِاعتِبَار أنَّ الشَّيء الَّذي يَملكُ تَاريخاً سَيتَطوّر تَطوراً عُضوياً، مُتماسكاً مُتحاشياً الطَّفرات والقَفزات، لذلك فالشِّعر الجَاهليّ وإِنْ ذَكرت بَعضُ قَصائده قُدسيَّة مَكَّة، يُعتَبر نِتاجاً شَخصياً بالدَّرجة الُأولى، لَكنَّ ذَلك لَا يَنأى بِهِ عَن المُؤثرات الاجتماعيّة الإِنسانيّة والوَاقعيّة عُموماً.

ثَالثاً: تُثبتُ النُّصوص الشِّعرية الجَاهليَّة الَّتي تَناولت مَكَّة، أنَّ عِلاقَة الشَّاعر الجَاهليّ بِالمَكَان ذَات أَبعاد مُتعدّدة، تَستحضرُ الوَاقعيّ، والخَياليّ، والوَهميّ، لكنَّ الشَّاعر الجَاهليّ يَكفِيه أنْ يَعيشَ فِي المَكانِ عَلى مُستوى الوُجود الحَقِيقيّ، وَيسبحُ المَكان المُقدّس، وَمُتعلقاته فِي عَالمه الشِّعريّ، فإذا هُدِّد هَذا

المَكان المُقدس لَدَيهِ، أوْ أَحاطَ بِهِ خَطرٌ فإنَّه سَيَقلقُ وَيَخاف عَليهِ؛ لأنَّه تَهديدٌ يمسُّ كِيانه، وَهُويَّته، وَإطاره الحَضَاريّ والفِكريّ.

ثالثاً: دَوَافِع غَزو (الأَشرم) لِمكَّة وَأَهدافه

لَقد ذَكر المَؤرِّخون، وَأَصحَاب الأَخبار الطِّوال[25] أنَّ أَبرهة الأَشرَم الحَبشيّ سَيِّد اليَمن قَد بَنى كَنيسة (القُلَيْس)[26] بِصَنعاء، فَكَانت آية فِي الصَّنعة والإتقَان بِمُساعدة قَيصر الرُّوم، الَّذي أَمدَّه بالصّناع، والفُسيفِسَاء، والرُّخام حتَّى انتهى مِن بِنَائها، عِندها كَتب الأشرَمُ إلى النَّجاشيّ، فَأَخبره بِأَنَّه بَنى تِلك الكَنيسة، وأَنَّه عازمٌ - كَما يَذكر ابن الكَلبيّ -: "عَلى صَرف حُجَّاج العَرب إِليها"[27]، فَهَدفه المُعلن هُو صَرف العَرب عَن أَقدسِ مَكانٍ فِي وُجُودِهم، وَرَمز وِحدتِهم، إلى (قُلَيْسِهِ) رَمز النُّفوذ الأَجنبيّ عَلى جَزيرة العَربِ فِي العَصر الجَاهليِّ، وَبِذلك يُمكِّنُ بِهذه الحَملة مِن سَيطرة الرُّوم، والأحباش عَلى بِلاد العَرب شَرقاً وغَرباً شمالاً وجنوباً؛ لأنَّ الانصِرافَ عَن الكَعبةِ والبيتِ إلى القُلَيْسِ بقوة الجَيش "هُو انصِرَاف العُروبة والاستِقلال إلى التَّبعية والاستعبَادِ"[28]. وَفي هَذا المَجال أيضاً يَذهب بعض الباحثين وَيضع هَدفاً آخر غَير مُعلن مَخفيّ لِحَملة الأَشرم عَلى مَكَّة، فَيقولُ: "حَملة الأَشرم عَلى مَكَّة كَانتْ تَرمِي إِلى رَبط اليَمن بِبلاد الشَّام، لِجَعل العَربيَّة الغَربيّة والجَنوبيّة تَحتَ حُكم النَّصرانيَّة، وَبِذَلكَ تَستَفيد الرُّوم، والحَبشة عَلى اختِلاف مَذهبهم النَّصرانيّ نَصَراً سِياسيَّاً، وَفِكرِياً، واقتِصادياً، ودينياً تَكُون ضَحيَّته بِلادُ العَربِ"[29]. لِهذه الأَهداف المُعلنة، وَغَير المُعلَنة لِحملة (الأَشرم) عَلى مَكَّةَ، جَاء الرَّد العَربيُّ عَفوياً -كَما يَقولُ أَغلبُ الدَّارِسين وَالمُؤرخيّن وفي مقدمتهم الطبري، وابن هشام، وجواد علي وغيرهم كما قدمت سابقاً[30] - نَابعاً مِن خُصوصيَّة القَصدِ الَّذي أَعلَنه (الأَشرمُ) مِن غَير تَكلّف؛ لأنَّ التَّكلف فِي الفِعل، أوْ السُّلوك يَعني انعِدَام المِصدَاقيَّة، وَلذَلك يَقولُ (الجَاحظُ): "مَتى أَعدت النَّفسُ عُذراً كَانت إِلى القَبِيح أَسْرع"[31]. لَكنَّ الرَّد العَفوي رَافَقه ردٌّ عَسكرّي في أَثناء مَسير الحَمْلة؛ فَقدْ خَرجَ إليه وَهو فِي طَريقه إلى مَكَّة رَجلٌ مِن أَشراف أَهل اليمن وَمُلوكهم، يُقال لَه (ذُو نَفر)، فَقاتل

(الأشرم) مَع قَومِه، لَكنَّه انهزمَ، وَأَخَذه (الأَشرمُ) أسيراً، وَأبقَاه مَعه لِيَدلَّه عَلى أَقربِ الطُّرق لِمَكَّة، فَكَانت هَذه المُقاومة الأُولى لِصَدِّ حَملة (الأَشرم). وَتَبعتْ هَذه المُحَاوَلة العَرَبيَّة فِي الوُقُوف فِي وَجْهِ (الأَشرم)، مُحَاولة أُخرى عَرَبيَّة تَزعمها (نُفيل بن حَبيب الخُثعميّ)، لَكنَّه هُزِم، وَأُسر عِندَ (الأَشرم). بَلْ تَحَوَّل بَعدَ ذَلِكَ إلى دَلِيلٍ لَهُ فِي الطَّريق كَما يَقولُ (الطَّبريّ)[32]، وَبِهَذه المُحَاولة العَرَبيَّة الثَّانِية لِصدِّ حَملَة (الأَشرم)، أَصبَح خَبر الحَملةِ يَنتَشرُ فِي الجَزيرة العَرَبيّة، لذا أَخذَ الخَوف والقَلق، يَدبُّ في أَركَان القَبَائل العَرَبيَّة الَّتي تَقعُ فِي طَرِيق الحَملة، وَخَاصةً قَبِيلة ثَقيف، الَّتي تَسكنُ الطَّائف، فَقَالوا لَه حِينَ وَصَلهم (الأشرم): "أيُّها المَلكُ إنَّما نَحنُ عَبِيدكُ، سَامعونَ لَك، مُطِيعونَ، لَيسَ عِندنا لَكَ خِلافٌ، وَلَيسَ بَيننا هَذا الَّذي تُريدُ - يَعنون اللَّات - إنَّما تُرِيدُ البَيتَ الَّذي بِمَكَّة، وَنَحنُ نَبعثُ مَعكَ مَن يَدُلك عَليه - فَتَجَاوزَ الأشرمُ عَنهم - فَبَعثوا مَعه أَبا رُغَال يَدله عَلى الطَّريق إلى مَكَّة"[33]، فَخَرج (الأَشرم) وَمعه أَبو رُغَال حَتَّى أَنزَله المَغمس، فَلمَّا نَزلَ بِه مَات أَبو رُغَال هُناك، رَجَمت قَبرَه العَرب.

ثَمَّ كَانت المُحَاولة الثَّالثة لِصدِّ (الأشرم) وَجَيشِهِ عَنْ وِجهَتِهِ وَهَدفه؛ فَقدْ رَوت المَصَادرُ التَّارِيخيَّة أنَّ كَبير قُريش وَسيدها (عَبدالمطلب بن هَاشم) قَدِمَ إلى (الأشرم) وَمَعه سَيد بَني كِنَانة (نُفَاثة بن عَدي)، وَسيد هُذيل (خُويلد بن وَائلة)، فَعَرضوا عَليه ثُلث أَموالِ تُهامة، كَما يَقول (الطّبريّ) عَلى أنْ يَرجعَ عَنهم، وَلا يَهدمُ البَيت، فَأَبى عَليهم ذَلِك[34]، وَبِهذا الإصرَار مِن (الأشرم) أَصْبَح جَيشُهُ فِي المَغمَس، يَتَهيأ لاحتِلال مَكَّة، وَهَدم البَيتِ، بَعدَ أنْ عَجزتْ جُهُود العَربِ المُبَعثَرة طيلة مَسِير جَيْش (الأَشْرم) عَن صَدِّه، فَكَانت آخِر كَلِمة مُقَاومة لِلأَحبَاش، هِي قَول عَبدالمطلب فِي وَجه الأَشرَم: "إنَّ للبَيتِ رباً سيمنعه"[35]، فَقال الأَشرَمُ: "مَا كَان لِيُمنع مِنِّي"[36]، فَردَّ عَليهِ بِغَضَبٍ: "أَنتَ وَذَاك"[37].

وَبِهَذا استَنفدَ العَربُ جُهودَهم لِصدِّ الأحباش؛ فَهي جُهود افتَقرتْ إلى الوَحدَةِ فَلمْ تَنجحْ، لكنَّها عَظيمة الدِّلالَة عَلى تَنامِي الوَعي، وازدِيادِ الانتِمَاء للمَكَان وَالجِنس العَربيّ، هَذا مِن جِهةٍ، وَمِن جِهة أُخرى دَليل عَلى تَفَاوت العَرب الجَاهِليينَ فِي ذَلك الوَعي وَالانتِمَاء، فَالعربُ الأَكثر وعياً قَاوَموا

(الأشرم) وَجيشَهُ، وَالأقلُّ وعياً آثَروا السَّلامَة والأمن، دُونَ إدراكِ النَّتائج المُترتِّبة عَلى هَذِه الحَرَكة فِي المُستَقبلِ، وَمِنهُم فِئة قَدَّمت العَونَ للأحباشِ في أَثناء الحَرَكَة مُؤثرة مَصَالحها الخَاصةِ، أوْ سَلامة القَبيلة عَلى المَصلَحةِ العَامة للعَربِ كُلِّهم، فَاستَحقتْ الرَّجم وَاللَّعن، وَفِئة مُغلوب عَلى أَمرِها، فَقدْ أَخَذها (الأشرم) عِنوَة مُكرَهينَ عَلى السَّير مَعهُ؛ لأنَّهم رَهَائن، لذلك يَقولُ (السُّكري) في هَذا الجانب: "الأَحباشُ فِي حَملَتِهم عَلى مَكَّة، جَعلوا لَا يَمُرُّون عَلى حَيّ مِن أَحياءِ العَربِ، إلَّا أَخَذوا مِنهم نَاساً"[38]، فَكَانت النَّتيجة أنْ عَاد أَبرَهة ذَليلاً مَقهوراً، حَيث قصَّ علينا القرآن خبر نهاية حملته، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[39]. وَبهذا الذُّل انتَهتْ حَملةُ (الأَشرم) عَلى مَكَّة دُونَ أنْ تُحقِّق أي شَيء، بَلْ بَقيتْ عِبرة لِكلِّ مَن تُراودُه نَفسه تَكرَارَ هَذا الفِعل. فَكَانَ لَها صورة فِي الشِّعر الجَاهليّ بخاصة، والأدب العربي بعامة.

رابعاً: صورة غزو (الأشرم) لمَكَّة في الشِّعر الجَاهليّ

الَّذي لَا رَيب فيه - بَعد العَرض السَّابق لأَهداف حَملة الأشرم - أنَّ الحَملة قَدْ حَدثتْ فِي وَقتِها، وَتَاريخها، وَكَانت عَازِمة عَلى هَدمِ البَيت وَالمَكَان الَّذي فِيه بِتَدنِيسه؛ فَقدْ رَسَم الشِّعر الجَاهليُّ هَذا الحِراك مِن المُنطَلق إلى المُنْتهى، وكأنَّ (مَكَّة) وَقُدسيّتها بِبَيتها تَتَجلَّى بِالمَعنى المَكَانيّ، والزَّمانيّ، والطُّقوسيّ لِبُعدها التَّاريخيّ، فمَكَّة بالنِّسبة إلى الفَرد الجَاهليّ تُمثِّل الذَّات، وَلِذَلك فَكلُّ عُدوان عَليها يُعتبرُ عدواناً عَلى الذَّاتِ عِند أَصحَاب عِلم النَّفس "بِاعتِبَاره انتِقَالاً رَمزِياً للأَنا"[40]. فَمَكَّة وَالبَيت بالنِّسبة إلى الجَاهليّ قَديماً، يُمثِّلان أَيضاً عُنصراً ضَاغِطاً عَلى الذَّاتِ لإخرَاجِ مَا فِي دَاخلها، وَهي تَعيش أَحلَك الظُّروف، وَأَصعَبها فِي تَاريخها، وَإِسقَاطه عَلى المَكَان، كَمَا أَنَّه يُحرِّك كَوَامن هَذه الذَّات، وَيُبِينُ عَن مَا يُراودُه اتِّجاهه مِن مَخاوفَ لَيستْ إنسَانيّة فَقطْ، بلْ إنسَانيّة كَونيّة، لذلك يَقولُ (أَدونيس): "مَن يَملكُ الشَّجاعة لِيُجابه خَطر المَكَان، هُو وَحدَهُ يَعرفُ كَيف يَكونُ سَيِّد مَصِيره"[41]، وَلِذلك يُعتبر الشِّعر

الجَاهلي فِي هذه الحَادثة مِن المَصادر الإِخبَاريَّة، عَظِيمة الشّأن النَّاقلة لَحركة الأَشرَم وَحربه؛ لأنَّ الشَّاعر الجَاهليّ - كَمَا يَقولُ سَعد الخَادم -: "يُنتِجُ فَنه لِيَدعم عَقيدته، أوْ لِيُؤثّر عَلى القُوى الخَارِجيَّة، فَيَجعَلها صَالحة لَه مُحَقّقة لأَمَانيه، مُوطِّدة لأَقدَامِه فِي الطَّبِيعة الَّتي يَعِيشُ" [42].

وَثمَّة أَمر آخر فِي هَذا المَجَال يَجب ذِكره، أنَّ صُورة المَكان بِعامة وَمكَّة بِخَاصَّة، قَدْ تَطوّرت بِتَطوّر أَحوَالِه فِي شُعور الشَّاعر الجَاهليّ وإحسَاسه، هَذا التَّطوّر الدِّلالي يَنبعُ مِن تطوّر المكان نَفسه - كَما ذَكرتُ فِي بِداية الدِّراسةِ - كَيف لا وَقد أَصبح المَكان مُهدداً مُحاصراً مِن كُلِّ الجِهَات، بَل مُهددٌ باقتِلَاع كِيَانه، وَتَاريخه، وَكلّ مَا يُحيطُ بِه من قيم، فَهُو اقتِلاع مُعلنٌ منذُ اللَّحظةِ الأُولى للغزو، يشملُ الإنسانَ، والمَكان، والفِكر، والتَّاريخ. وَفِي هَذا سَتكون صورة الحَملة فِي الشِّعر مقسومة عَلى أبرَهة وَجيشه، وَهَزيمة الجَيش واندِحَاره، وَوَصف الفَيل المُرافق للحَملة، وصدى المُتواطِئين مَع هذه الحَملة. . . . .

أولاً - صورة أبرهة وجيشه

وَصف الشِّعر الجَاهلي أَبرَهة وَجيشه؛ لِيُوفر لَنا البَيَاناتِ اللَّازمة المَقرُونة بالسِّياق التَّاريخي، فَهو وَصف لَا يَخرج عَن المُحَاكاة فِي جَانبٍ، والتَّصْوِير فِي جَانِب آخر؛ لأَنَّهُما - التَّصوير والمُحَاكاة - بالنِّسبة إلى الشَّاعر الجَاهلي فِي هذا المَوضُوع الجَلَل، يعني الانتِقال فِي التَّشخيص ممَّا هُو قَائم فِي الوَاقع المُشَاهد إلى الوَاقع المَوضُوعي، حيثُ تَتَداخلُ فِيه البَصريَّة (الطَّيفية) بَأبعَادٍ وَاقِعيَّة مَع بَقَائها فِي دَائرة الحَدثِ المُعَين (الغَزو)، فَالوَصف لأبرَهة وجيشه بهذه الحَال، يَحملُ دِلالة التَّهويل، لِذَلك فَهُو يَحملُ سِمَتَين أوْ رُؤيَتَين اثْنَتين؛ الأُولى: تَصفُ مَقدم جَيش الأَشرم، والثَّانية: تَصفُ مَا لَحقَ بِالجَيشِ مِن عِقَاب، وَهَلاك، وَخُروجهم مِن أَرضِ مَكَّة مُندَحِرين، جَارين أَذيَال الخَيبةِ والخَوفِ، وَمِن ذَلك الشِّعر الَّذي يُشخص هذه الحَالةِ لِجَيش الأَشرم وَعلى طَريقَته، قول (كُلثوم بن عُميس) وَهو مُكَبَّل عِند أَبرهة[43]:

أَلا لَيتَ إنَّ الله أَسمع دَعوَة وَأرسلَ بَينَ الأَخشبين مُنَاديا

أَتتكُم جُموع الأَشرم الفَيل فِيهم وَسُود رِجالٍ يَركَبونَ السَّعاليا
وَرَجل جِسَام لَا يَكتُّ عَديدهم يَهزونَ واللَّات الحِراب الصَّواديا
أَتوكُم أَتوكُم تَبشعُ الأَرض مِنهم كَما سَال شُؤبوب فَأبشع وَاديا

فَهَذا وَصفٌ لِجَيش (الأَشرم) - كَما يُريدُ الأَشرم نَفسُه - وَمنْ فِيهِ، فَهو جَيشٌ عَرَمرمٌ كَثِير العَددِ، سُود الوُجُوه، مِنهم الفُرسَان الَّذين يَركَبُون الأَهوَال دُون خَوفٍ أَوْ تَردٍ، وَمِنهم الرَّاجل الَّذي يَمشي عَلى قَدميه، وَمنهُم الشَّر المُستطير الَذي يُشبِه حَالة المطرِ الماحق الَّذي يَملأ البِطاح وَالأَودِية، فَالأَرضُ ضَاقتْ بِهم، حَامِلينَ أَسلِحَتهم، مُتقنينَ كُلَّ فُنون القِتَال فِيها، فَهي لِذَلك مُتعطِّشة للدِّماء. فَهذه الصُّورة الَّتي رَسمها (كُلثوم) المغلوب عَلى أَمرِه، تَبعثُ الرُّعب والخَوفَ عِندَ سَماع أَهل مَكَّة بِها، وَهو الهَدف الَّذي يَرمي إِليه الأَشرمُ مِن إِجبار (كُلثوم) عَلى مَدح وَوَصفِ الجَيشِ، فالأَشرمُ أَرادَ مِن تَهويلِ صُورة الجَيش، أَنْ يُحطم الرُّوح المَعنويَّة القِتَاليَّة لأَهلِ مَكَّة، فَهي بِمَثَابة الحَربِ النَّفسيَّة الَّتي تَسبقُ الحَدثَ، لكنَّ الشَّاعر أَرادَ بِشِعْره أَنْ يُوصلَ رِسالةً عَكسيَّة تُغَاير إِرادةَ الأَشرم، وَتَسِيرُ مِن تَحتِ يَديْهِ، وَعبر رُسلِهِ الَّذين سَينقلونَ هَذا الوَصفِ، فَهو يُحذِّر قريشاً مِن هذا الجَيش، وَعَليهم الاستعدَاد لِقِتاله بِكلِّ الوَسَائل المُتَاحة لَهُم، لِذَلك قَال: (أَلا لَيتَ إِنَّ الله أَسمَع دَعوَةً). فَالخوفُ الَّذي يَستبدُّ بالشَّاعر والسَّأم الَّذي يَلُفه، والسَّويداء الَّتي تَفترسه، مَا هِي إِلَّا الوَجه الآخر لِمَأساة الشَّاعر نَفسه، وللمأساة الَّتي سَتقعُ لأَهلِ مَكَّة وَالبَيت (أَتوكُم أَتوكُم تَبشعُ الأَرض مِنهم)، فَالمَعنى فِي وَصفِ الشَّاعر يَنطَوي دَاخل بِنية خِطَابه عَلى "مَعنى المَعنى"[44] مضمراً ليؤكدَ بِه المَعنى الإِشرَاقي الثَّوريّ المكتنز فِي لَفظ "أَتوكُم أَتوكُم"، لِيُحقق مِنه رِسَالته المُضمَرة فِي ثَنايا أَبياته الشِّعريَّة.

وَثمَّة شَيء آخر نَلمَسُه عِند (كُلثوم) فِي وَصف جَيشِ الأشرم فِي الجَانب الأُسلوبيّ، يَتمثَّل فِي التَّركيز عَلى الصُّور المُركَّبة فِي نَقل المَعنى المُضمَر والظَّاهر، والصُّورة المُركبة، أو اللُّغة المِعيَاريَّة الَّتي تَصف الجَيش فِي هَذا المَوقف تُمثِّل "خَلفيَّة اللُّغة الشِّعريَّة"[45] عِند (كُلثوم)، لِذَلكَ زَاوجَ فِيها بَينَ المَوقف الحِسّي المُشاهد بِالعَين للجَيشِ، وَالمَسموع بِالأُذن، لِتَحملَ فِي ثَنَاياها

أَدَق التَّفاصِيل الَّتي تَخدم المَعنى الَّذي يُريده الشاعر كما يقول (مِكلش) في أقواله النقدية[46]. وَيذكرُ (ابنُ حَبيب) صَاحبُ كِتاب المُنمَّق أَبياتاً لِـ (قَيس الخُزاعيّ) يَمدح فِيهَا الأَشْرمَ وَجَيشه جَبراً عَنه بِطَلبٍ مِنهُ، فَقَال لَهُ: "امْدَحنِي، وَاذكرْ مَسِيري"[47]، فَقال الخُزَاعيّ مُستَجِيباً لأَمرِهِ مَادحاً وَوَاصفاً:

حَـي الـمـدَام وَكَـأسـهَـا ... لـلأَشـرمِ الـمـلـك الـحَـلاحِـل
أُنـبِـئـت أَنَّـك قَـدْ خَـرجـتَ ... فَـقُـلـت: ذِكـر غَـيـر خَـامِـل
أَولادُ حُـبـشـةَ حَـولَـهُ ... مُـتَـلـحـفـونَ عَـلـى الـمَـرَاجـلِ
بِـيـض الـوُجُـوهِ وَسُـودهـا ... أَشْـعـارهـم مِـثـل الـفَـلافِـل

فالشَّاعر (الخُزَاعيّ) يُهَيمنُ عَلى حِسّه الدَّاخِلي فِي هذا المَوقفِ صُورة الوَصفِ، والمدح المُتَّصل بِالواقع لِجَيش الأشرم؛ لأنَ الوَصفَ بالنِسبة إِليهِ فِي هَذا المَوقفِ كَما يَقولُ (قُدامة): "ذِكر الشيء بِما فِيه مِن الأحوال وَالهَيئَات"[48]. فَالغَاية الَتي يُريدُها (الخُزَاعيّ) أن يَكشِفَ أنَ الأَشرمَ وَجيشه مِن جِنس الأَحبَاشِ أَصحَاب الوُجوه السَّوداء، وَشَعرهم المُفلفَل؛ فَهي أَوصافٌ تُخفِي خَلفَها مَكمَن قُوة جيش الأَشرم دُون الإِعجابِ بِهِم، لأَجلِ ذَلكَ وَصَفهُم كَمَا هُمْ لِرَصدِ حَالتِهِ النَّفسيَّة، وَحَالة المُتَلقي مُمثَّلة بِالأَشرم نَفسه. وَهُناكَ أَمرٌ آخر يَتحرَّك فِي بِنَاءِ الأَبيَاتِ، يَأتِي مِن جَانبِ التَّصويرِ الَّذي يُطَابقُ الصِّفاتِ وَالمُكَونَاتِ - (أَولادُ حُبشةَ/ بِيضُ الوُجوه وَسُودها/ أَشعَارُهم مِثل الفَلافِل) - النَّابع مِن إِحَاطَة (الخُزَاعيّ) إِحَاطَة تَامة مِمَّا يَرى وَيَسمعُ ،هَذا مِن جِهةٍ، وَمِنْ جِهةٍ أُخرَى يُحَاكِي مَا يَرى مُحَاكاةً لَفظيَّة خَاصة، فِي مُحَاولة مِنهُ لِتَمثِيلها صَوتِياً لا يَختَلفُ فِيه القَولُ عَن الوَاقِع. وَفي الجَانب الأُسلوبِيّ نَلحَظ تَركيز الشَّاعر عَلى مَوضوع التَّنافر اللَّفظيّ (بِيضُ الوُجوه وَسُودها)، فَهي إِشَارة مِنه إِلى اختِلَاف لَوْن أَفْرَاد جَيشِ الأَشْرَم، فَمِنهم الأَبيضُ وَمنهم الأَسْود، حَيثُ قَدَّمَ فِي الجَانِب اللَّفظي الأَبيض عَلى الأَسوَد، لاعتِقَادِه أَنَّهُ الأَصل للبَشَريَّة، وَأَنَّ السَّواد طَارئ عَليها فِيمَا بَعد، فَهو بِذلك يَسخَرُ مِن الأَشرم، وَجَيشِه بِهذِهِ الطَّرِيقةِ المُبَطَّنةِ؛ لأَنَّه أَجَادَ التَّعبير والتَّصوير، فَهذا الأُسلوب عِندَ (المَرزوقيّ): "مِن الذَّكاء

وَحُسن التَّمييز "[49]، وَهو مَا أَشار إِليه (ابن طَباطبا) بِضرورة أنْ يَعتَني الشَّاعر "بِتَحسينِ صُورته إِصَابةً "[50]، وَاعتَبره (ابن قُتيبة) فِي مَعرِضِ حَدِيثه عَن الشِّعر "مِعيَاراً شِعرِياً "[51]، وَصُورة التَّنافر تَعكِس فِي الجَانب الشُّعوري إِضَافة إِلى مَا سَبق مَا يُجسِّد هَذه الحَالة الَّتي تُعمِّقُ الأَثر العَاطِفيّ لَدى المُتَلَقي، وَتُثِير كَوامنَ فِكرِهِ.

وَمِن الشُّعراء الَّذِين وَصفوا الأَشْرم وَجيشه (عَبدالمطلب)، فَصَوَّرهم بِأَنَّهم بِصُحبَة الأَفيال، مَعَه فُرسَان مُتَمَرِّسون مُتَعَطِشُون للقِتَال برَغبةٍ لَا رَهبةٍ، فَوَصفه وَتَصويره للجِيش يَنطَلقُ مِن المَجَال الحَيويِّ الوَاقِعيّ الَّذي يُمَارسه، وَيَعِيشُه لَحظة مُشَاهَدة الجَيش، لِكَونِهِ المَعنِيّ بِالتَّقوِيم عَلى الرَّغم مِن مَرَارَته بالنِّسبة (إلى عَبد المُطَّلب)، إِلَّا أَنَّه لَا يَستَطِيعُ تَغيير هَذا الوَاقع بَل اكتَفى بِتَصويرِه، فَيقولُ[52]:

يَا أَهل مَكَّة قَدْ وَافاكُم مَلكٌ مَع الفُيولِ عَلى أَنيَابها الزَّرَد
هَذا النَّجَاشيُّ قَد سَارَت كَتَائِبه مَع اللُّيوث عَليها البِيض تَتَّقدُ
يُريدُ كَعبَتَكم، والله مَانِعه كَمَنع تُبّع لَمَا جَاءها حرد

فَالوصفُ والتَّصوير يَحمِلان فِي ثَنَاياهما بِنية مُوشَّحة بِالسَّواد القَاتِم، فَلا شَكَّ فِي ذَلك؛ فَهو وَليد الوَاقع الَّذي هُو أَكثر قَتَامة مِن الوِشَاح نَفسِهِ، كَيفَ لا وَأهلُ مكَّة مُهدَّدون مِن جِيشٍ جَرَّار لَا يُقهر، جَيشٌ قَوامه السَّواد وَأفرَاده سَواد يَرنُون إِلى الكَعبةِ وَتَدنِيسها، فَالهمُّ الكَبير عِند (عَبدالمُطّلب) يَتَمركزُ بِقوله: "هَذا النَّجاشيُّ قَد سَارت كَتَائبه"؛ لِيَلعبَ الهَمُّ دَوراً كَبيراً فِي تَشكِيْل صُورة وَاقع جَيش الأَشرَم؛ ذَلك لأنَّ الخِيارات الحُرَّة مُتعدِّدة، والذَّات مُهدَّدة (يُريد كَعبَتَكم). فَأهلُ مَكَّة أَمامَ هَذا التَّحدي، يَعِيشونَ الانكِسَارات الَّتي تُهدِّد كِيانَهم، والسَّحق الَّذي يَنتَظرهم مِن الأَشرم، لِذَلك لَجَأ (عَبدالمُطَّلب) إِلى تَلمُّس طَريق الخَلاص مِن هذا الخَطر بِلجُوئه إِلى مَن هُو أَقوى مِنهُم فِي مُعتَقدِه وَفِكره (والله مَانعه كَمنع تُبّع)، فَهُو حُلم بالنِّسبةِ إِليه فِي الوَاقِع، لَكنَّهُ فِي الزَّمن القَريب سَيَكونُ حَقِيقَة مَاثِلة، وَالحُلم الَّذي يُراودُ (عَبدالمُطَّلب) - كَما يَقولُ (المَكَّاويّ) -:

"يَحمِينا مِن اطِّراد الحَياة وَسَيرِها المُعتَادِ"[53]، وَثمَّة أَمران آخَران يُركِّز عَليهما (عَبدالمُطَّلب) فِي الأَبيَات، يَتمثَّل الأول: فِي لَفظ (الفِيل)؛ لأنَّ هذا اللَّفظ قَليلُ الوُرودِ فِي الشِّعر العَربيّ الجَاهليِّ بَلْ نَادرٌ، مِمَّا يَدلُّ دِلالَة وَاضِحة على أنَّ هَذه الحَملة اتَّخَذت مِن حَيوان (الفِيل) وَقُوَّته عِنواناً لَهَا فِي تَدنِيس البَيت وَهَدم الكَعبَة، وَهَذا اللَّفظ يَتوافق مَع اللَّفظ نَفسه الَّذي وَرد فِي القُرآن الكَرِيم فِي سُورة الفِيل، والثَّاني: أنَّ (عَبدالمُطَّلب) حَدَّد فِي البَيتِ الأَخير هَدف الحَملة الَّذي مِن أَجله سَار جَيش الأَشرَم المَاثِل بِهدمِ البَيتِ والكَعبةِ، فَلا رَجعة عَنه بالنِّسبة إلى الأَشرَم حَتَّى يَتَحقق لَكنَّه رُغم رُؤيَتِه هَذا الجَيش وَمَا لَديه مِن قُوة، فَقدْ سَلَّم أَمره - رُغم وَثنيَّته - لله - عزَّ وجل - "والله مانعه" - فَالمَنعُ بالنِّسبة إلِيه، وَبِهَذه الثِّقة الَّتي يُصرِّح بِها وَاقع لا مَحالة؛ لأنَّ الأَشرَم لَا يَعلَمُ قُدسيَّة المَكَان الَّذي ذَهبَ لِهَدمِهِ، ولِذَلك كَان (عَبدالمُطَّلب) مُرتَاح الضَّميرِ للنَّتيجة النِّهائية رُغم هذه القُوَّة الَّتي يَتمتَّع بِها الأَشرَم.

وَفِي صَدى هَذا الوَصفِ لِجَيش الأَشرم، تَجدُ الدِّرَاسة أنَّ هُناك بَعض الحَقَائق التَّاريخيَّة الواجب إِبرَازها، أَولها: أنَّ وَاقعة الفِيل لِهدَم البَيت كَانت حَملة مُوجَّهة لِهَدمِ شَرف العَربِ وَقُدسيَّتهم، هَذا مَا صَرَّح بِه (عَبدالمُطَّلب) فِي وَصفِه جَيش الأَشرم وَرُؤيتِه. ثَانِيها: يَتمثَّل بِأنَّ الأَشرم استَخدَم فِي حَملته، وَتَسليح جَيشِه كُلّ مُقَوِّمَات القُوَّة المُتَاحة لِنَجَاح هَذه الحَملَة، وَبِأقل الخَسَائر، فَكَان عَلى رأسها الحَرب النَّفسيَّة، أَوْ الجَانب النَّفسيّ الَّذي يُركِّز عَلى هَزِيمة القُوَّة العَربيَّة مِن الدَّاخلِ قَبلَ الدُّخول فِي المَعرَكةِ الحَقِيقِيَّة، فَكَانَ هَذا الجَانِب العَسكرِيّ، يَتمثَّل عِند الشَّاعر (قَيس بِن خُزَاعيّ)، الَّذي طَلبَ مِنه الأَشرمُ وَأَمَام المَلأ أَنْ يَمدَحه، وَيذكرُ جَيشه الَّذي سَيهدمُ الكَعبةَ، وَيُدنِّس البَيت.

ثانياً - صورة هزيمة جيش الأشرم

فِي هَذا الجَانِبِ الأَدَبيِّ يَجبُ أنْ نُشِيرَ مُسبَقاً، إلى أنَّ الشَّاعر الجَاهِليَّ فِي تَصوِيرِهِ جَيش الأَشرَم، وَانهِزَامه أَمَامَ قُدرَة الله - عزَّ وَجلّ - يَتَّسم بِنَفسيَّة دِعَائِيَّة إِعلاميَّة، لأَجلَ ذَلكَ انتَبهَ الشَّاعر الجَاهليُّ إِلى دَقَائق الأُمورِ الَّتي تُثِير انتِبَاهه،

فَأَخذَ يُسَارِعُ إِلى تَدوِينِها فِي شِعرِهِ، فَقد صوَّره الشُّعراء بِأَنَّه مُنهزِمٌ نَزلَ بِه البَلاءُ، والسّخط، والغَضبُ الإِلهِي، فَيقولُ فِي ذَلك الشَّاعر (عَمرُ بن الوَحِيد)[54]:

سَطَا الله بِالحُبشَانِ والفِيلِ سَطوةً	أَرَى كُلَّ قَلبٍ وَاهِياً فَهُو خَائِفُ
وَيَومَ ذُبَاب السَّيفِ كَانَ نَذِيرُه	وَيَوم عَلى جَنبِ المَغمسِ كَاسِفُ
أَمِيرُهم رَجْلٌ مِن الطَّيرِ لَمْ يَكُن	نِقَافاً لَها بَينَ الحِجَارَةِ وَاكفُ
كَأَنَّ شَآبِيبَ السَّمَاءِ هَوِيَّةٌ	وَقَدْ أَشعَلَت بِالمَجلِبَينِ النَّفَانفُ
نَدقُّهُمُ مِن خَلفِهم وَأَمَامهم	وَعَارَضهم فَوْجٌ مِن الرِّيح قَاصِفُ
يُخَالِنَّهُمْ أَنفَاسهم وَنُفُوسِهم	وَلَم يَنج إِلَّا التَّابعون الرَّوادِفُ
كّأَنَّهم غِبّ العِقَابِ هَشِيمةٌ	مِن الصَّيفِ تُذريهِ الرِّياحُ الرَّفارِفُ
وَكَانَ شِفَاءً لَو ثَوَى فِي عِقَابِها	نُفَيْلٌ وللآجَالِ آتٍ وَصَارِفُ

الشَّاعر (عَمرُ بن الوَحِيد) مِن خِلالِ هَذِه الأَبيَاتِ، يُصوّر وَيُؤرِّخ فِي السِّجل الأَدَبيِّ لِهَزِيمةِ جَيش الأَشرم، لِذلكَ يُمكِن أنْ تُعتَبر هَذه الأَبيَات مَصدراً مِن المَصَادِر التَّارِيخيَّة فِي نَقل، وَوَصفِ مَا حَدثَ للأَشرم، وَجَيشِهِ بِفِعلِ القُوَّة الإِلَهيَّة "سَطَا الله بِالحُبشَانِ والفِيلِ سَطوةً"؛ لأنَّ الشَّاعر فِي وَصفِهِ لَا يَنطِلقُ مِن الفَرَاغ، بَلْ يَنطِلقُ مِن وَاقعٍ مَحسُوسٍ، فَرَضه عَليهِم الأَشرمُ وَجَيشُهُ، هذِه الانطِلَاقة تَتَجلَّى فِيهَا رُوحُ العِلم، وَالمُشَاهَدة، وَالوَاقِع المَمزُوجَة بالصُّورة الأَدَبيَّة. فَالصُّورة الكُليَّة الَّتي يَنقلها الشَّاعر، تصوّرُ مَا حَلَّ بِجَيشِ الأَشرم مِن هَزِيمةٍ وَتَشتيتٍ، لِذَلك لَجَأ الشَّاعر لِتَكَاملها إِلى الصُّور الجُزئيَّة الذِّهنيَّة، مِزاجها حَشد مِن اللَّقَطَات، تَستَأثِر الحِسيَّة فِيها بِنَصيبٍ وَفِيرٍ - كَأَنَّ شَآبِيبَ السَّماءِ هويَّة/ كّأَنَّهم غِبّ العِقَابِ هَشِيمةٌ - تَقتَربُ بالدِّلالاتِ المَعنويَّة الكُليَّة، فَالشَّاعر بِهَذَا الأُسلُوب كَما يَزعم (الصَّائغ): "يُفكِّك الوَاقع، وَيَعمدُ إِلى تَشكِيلِهِ فِي المُخَيِّلة الذِّهنيَّة تَشكِيلاً أَدبياً، لُحمتُهُ الحَواسُّ الخَمس"[55]، فَالصُّورة بِهَذا التَّركيب الأَدبيِّ - إِضَافة لِمَا سَبق - تَنبعُ مِن عُمقِ (عُمر بن الوَحِيد) لِمُضَاعفة التَّأثير فِي خَلقِ أَقوى الأَحَاسِيسِ مِن أَجلِ تَقريبِ الدِّلالات إِلى فَهم المُتَلقي. وَمِن الشُّعراء

الَّذين وَصفُوا وَصوروا هَزيمة جَيش الأَشرم الشَّاعر(نُفَيْلُ بن حَبيب)، الَّذي كَان بِرِفقَة الجَيش أَسيراً، فَوَصفُه وَصُورته أَقربُ إِلى الحَقِيقةِ، فَيَقولُ[56]:

مَاذَا يُرِيْكَ عِقَابِي لَو ظَفرتُ بِهِ	**يَا ابنَ الوَحيدِ مِن الآيَاتِ والعِبَرِ**
قُلنَا المغمسُ يَوماً ثُمَّ لَيلَته	**فِي عَالجٍ كَثؤَاجِ النَّيبِ وَالبَقَرِ**
حتَّى رَأَيْنَا شُعَاعَ الشَّمسِ تَستُرُهُ	**طَيْرٌ كَرجل جَرادٍ طَارَ مُنتَشِر**
يَرمِيننا مُقبِلاتٍ ثُمَّ مُدبِرة	**بِحَاصبٍ مِن سَوَادِ الأُفقِ كَالمَطَرِ**
وَأشعلَ الحُبشُ لا تَلوِي عَلى أَحدٍ	**وَعَارضتنا زُحوفُ الرِّيحِ عَنْ يُسُرِ**
كَبَّاً لأَذقَاننا والرِّيحُ تُدبرُنا	**لا نَتَّقي الشَّر مِن رِيْحٍ وَلا حَجَرِ**
فَزَل مِنَّا شَديدٌ لا طَبَاخَ بِهِ	**وَمَاتَ أكثرُ ذَاكَ الجَيشِ بِالعُسُرِ**
كَأَنَّهُمْ نَجلَات الضَّأنِ نَائِمة	**وَبِالمتونِ مِن الحُبشَانِ كَالدُّبُرِ**

فَالوَصفُ الَّذي جَاءَ عَلى لِسَانِ (نُفَيْل) فِي البِنَاء السَّطحيّ للأَبياتِ، يُعَاينُ ذَلكَ الحَدث الرَّهِيب بِالعَين، وَكَأَنَّهُ نَقلٌ مُبَاشِرٌ لِمَا يَحدثُ عَلى أَرضِ الوَاقِع لِجيش الأَشرَم، فَلا مَنَاص مِن جَحِيم الطَّير الرَّامية للحِجَارَة الحَامية مِن السَّمَاءِ، وَلا مَفرَّ وَمَحِيص مِن الرِّيح العَاتِيةِ الَّتي صَحبت الطَير، وَاقتَلعتْ، وَقَتلتْ أَفرَاد الجَيش إِلَّا مَا نَدر، فَفِي هَذَا اليَوم الرَّهيب لا عَاصِم يَعصِمُ فُلُول جَيش الأَشرم، وَلا مَلجَأ يَلجَؤون إِليهِ فِي بِلادِ العَربِ، وَلا أَيّ رُكنٍ مِن الأَركَانِ يَأوونَ إِليهِ فِي مَكَّة، أَوْ أَيِّ مَكَان فِي بِلاد العَربِ.

أَمَّا البِنَاء العَمِيق للأَبيَات فيَنقلُ لَنا وَاقِعين، الأَوَّل نَفسِّي؛ لأَنَّ الشَّاعر فِي هذا الجَانبِ مَعنِيٌّ - كَما يَذكر (الدُّروبِيّ) -: "بِالحَرَكات النَّفسيَّة"[57]، فنُفَيْل فِي قَرَارةِ نَفسِهِ فَرِحٌ بِمَا حَلَّ لِجَيشِ الأَشرم وَقَائدِهِ مِن هَزيمة وَسَحق، هَذا فِي الجَانب الشُّعوريّ الدَّاخلي لِنُفَيْل. أَمَّا الثَّاني: تَمثِيليٌّ، فَنُفَيْل كَان أَيضاً مَعنيّاً فِي نَقل صُورة هَزيمة الجَيشِ بِكلِّ مَا يَرَى بِالعَينِ وَيَسمعُ بِالأُذنِ (يَرمِيننا مُقبِلاتٍ ثُمَّ مُدبِرة/ حَتَّى رَأَيْنَا شُعَاعَ الشَّمسِ تَستُرُه/ كَأَنَّهُمْ نَجِلَات الضَّأنِ نَائِمة). فَالمُزاوَجة بَين الحَركةِ النَّفسيَّة والتَّمثيلية فِي البِنَاء العَميق للأَبيَاتِ عَند أَهلِ البَلاغةِ "يَعكسُ حَالةً نَفسيَّة وِجدَانِيَّة وَإِدرَاكاً ذِهنِيّاً"[58]. وَلا يَكتَفي (نُفَيْل) بِهَذا التَّصوير والنَّقل

المُبَاشر لِما حَلَّ بِالجيش. بَلْ يُصوِّر لَنا حَال الهَارِبينَ مِنه، فَيطلبُونَه - نُفَيل - أنْ يَدلَّهم عَلى طَريق النَّجَاة مِن هَذا الوَاقع الرَّهِيب، فَهو تَصوير شَامت تَعلو فِيه، وَفِي بِنَائه رُوح الفَرحةِ، وَنَشوة النَّصر الإِلهيّ، دُونَ أنْ يَكُون لَهُ حَولٌ وَلا قُوة، فَيَقول[59]:

أَيْـنَ الْـمَـفَـرّ وَالإِلَـهُ الـطّـالِـبُ وَالأَشْرَمُ الْمَغْلُوبُ لَيْسَ الْغَالِبُ

وَيَقولُ فِي مَوضعٍ آخر فِي هَذهِ الدِّلالة، الَّتي تَصِفُ حَالة الفَوضَى فِي جَيشِ الأَشرَم بَعد الهَزِيمة، فَيقولُ[60]:

حَمِدْتُ اللّهَ إِذْ أَبْصَرْتُ طَيْراً وَخِفْتُ حِجَارَةً تُلْقَى عَلَيْنَا
وَكُلّ الْقَوْمِ يَسْأَلُ عَنْ نُفَيْلٍ كَأَنّ عَلَيّ لِلْحُبْشَانِ دَيْنَا

وَيَصفُ الشَّاعرُ (عَبدالله بن الزِّبَعرى) مَكَّة، وَهي مُستَعصية عَلى جَيش الأَحبَاش، وَيَقرنُها بَأحَدَاث المَاضِي المُمَاثلة، حيثُ استَعصت عَلى كُلِّ الغُزَاة الَّذين جَاؤوا إِليهَا لِيَرُوموا حَرِيمَها، فَيَقُول[61]:

تَـنـكَّـلُـوا عَـنْ بَـطـنِ مَـكَّـةَ إِنَّـهـا كَـانـتْ قَـدِيـمـا لا يُـرَامُ حَـريـمـهـا
لمْ تخلق الشِّعرى لَيَالي حُرِّمت إِذْ لا عَـزِيْـزَ مِـنَ الأَنَـامِ يَـرومُـهـا
سَائلْ أَمِيرَ الجَيشِ عَنهَا مَا رَأى وَلَسوفَ يُنبي الجَاهِلين عَليمُهَا
ستونَ ألفاً لَمْ يَؤوبوا أَرضَهُم وَلَم يَعِشْ بَعدَ الإِيَابِ سَقِيمُها
كَانتْ بِها عَادٌ وَجُرْهُمُ قَبْلهُمْ وَاللهُ مِنْ فَوْقِ العِبَادِ يُقيْمُهَا

فَالشَّاعر فِي مُحَاكَاة هَذا الحَدث، يَستَخدم رَمزاً شَفافاً وَاضحاً وَبسيطاً للدِّلالةِ عَلى نِهَاية الغَزو، يَتمثَّل فِي دِلالة "لمْ تخلق الشِّعرى لَيَالي حُرِّمت" فَالشِّعرى بالنِّسبة إِليهِ رَمزٌ للإِضَاءةِ، والتَّنويرِ، والوُضُوحِ بَعدَ الظَّلامِ الَّذي خَيَّم عَلى مكَّة وَالبيت بِفِعل غَزو الأَشرم، فَالانتصار جَاءَ بَعدَ مَخَاضٍ عَسيرٍ عَاشه أَهلُ مَكَّة بِخَاصةٍ، وَالجَزيرة العَربيَّة بِعَامة، وَلِهَذا اتَّكأ الشَّاعرُ فِي بِناءِ الأَبياتِ عَلى مَجمُوعةٍ مِن الصُّور، وَالأَسَاليبِ لِتَنقلَ صُورة هَذا الانتِصَارِ، مِنها الثُّنَائِية الضِّدية "وَلَسوفَ يُنبي الجَاهِلين عَليمُهَا" وَالحِوَار المُبَطَّن "سَائلْ أَمِيرَ الجَيشِ عَنهَا مَا رَأى". فابن (الزِّبعرى) بِهَذه الشِّعريَّة، يَخلقُ الوَاقع خَلقاً فَنياً، أو الحَدث

المُرَافق لِهَزيمةِ الأَشرم وَجَيشهِ، وَفِي الوَقت نَفسِه لَا تَنفَكّ عَنهُ الحَالة الشُّعوريّة وَالفِكريَّة؛ حَيثُ ظَهرتْ فِي سِياقه الشِّعري بِتَعبيراتٍ مُمتِعة، وَصُور تُثير حَفِيظة المُتَلقي للمُتَابعة فِي تَخيّل مَا حَدَث لِجَيش الأَشرم (تَنكَّلُوا عَنْ بَطنِ مَكَّةَ إنَّها/ كَانتْ قَدِيما لا يُرَامُ حَريمها)، والشَّيء اللافت للنَّظَر فِي المَقطع الشِّعري تَركيز الشَّاعر عَلى القِوام العَدديّ للجَيش "ستونَ ألفاً لَمْ يَؤوبوا أَرضَهُم"، فَهَذا التَّركيز يُعطي صُورةً وَاضحة بِأنَّه جَيشٌ جَرار مُقَارنة بِما تَملِكه مَكَّة وَالجَزيرة مِن عَدد وعَتَاد. وَهِي مِن الإِشَارَاتِ الأُولى فِي الشِّعر الجَاهليّ الَّتي تُعطي العَدد الحَقيقي لِجَيش الأَشرَم، أوْ العَدد التَّقريبيّ، وَلِذَلك يُمكنُ أنْ تُعتبر هَذه القَصِيدة مِن الوَثَائق التَّاريخيَّة، الَّتي تَصف الحَدث وَفِي نَفس الوَقت تُعطي العَدد لِهذا الجَيش.

وَيَصفُ الشَّاعر الجَاهِليّ (أَبو قَيس بن الأَسلت) هُروبَ جَيش الأَحبَاش أَمَامَ هَولِ مَا حَدث، وَيطلبُ مِن أَهلِ مَكَّة أنْ يَقُوموا بِأَداء الشُّكر لِصَاحبِ هَذه القُوة، وأنْ يَتَمسَّحوا بِكُلِّ رُكن مِن أَركَان البَيت الوَاقع بِين جِبال مَكَّة شُكراً لَهُ؛ لأَنَّه أَعَاد كَيدَ الأَشْرم - أَبا يَكسُوم - إِلى نَحره وَلَمْ يَتَحققْ، فَالطَّير كَانت لَهُ بِالمِرصَادِ؛ حَيث شَبَّهها (بِالقَاذفات) الَّتي تُلقِي مَا مَعهَا عَلى رُؤوس أَفراد الجَيش، فَهو وَصفٌ مُباشر يَنقل طَرِيقة سَير المَعرَكةِ كَيف بَدأت وَكَيف انتهتْ؟، فيقول[62]:

فَقُومُوا فَصَلُّوا رَبَّكم وَتَمَسَّحُوا ... بِأَركَان هَذا البَيتِ بَينَ الأَخاشِبِ
فَعِندكُم مِنهُ بَلاءٌ مُصدَّق ... غَدَاة أَبي يَكسُوم هَادِي الكَتَائِبِ
كَتِيبته بالسَّهلِ تُمسِي وَرَجله ... عَلى القَاذِفَات فِي رُؤوسِ المَنَاقِبِ
فَلمَّا أَتَاكُم نَصر ذِي العَرش رَدهم ... جُنود المَلِيكِ بَينَ سَافٍ وَحَاصِبِ
فَولوا سِرَاعاً هَارِبِينَ وَلَم يَؤُب ... إِلى أَهلِهِ مُلحبش غَير عَصَائِبِ

ثَالثاً - صورة وَصف (الفِيل) المُصَاحب للغَزو

الشِّعر الجَاهليّ الَّذي وَصفَ حَملةَ الأَشرَم وَفِيله شِعرٌ، يُصوِّر لَنَا أنَّ الفِيل قَد خَذَل الأَشرم وَقَومَه الأَحبَاش، فَحِين سَار اتِّجاه مَكَّة لِهَدمِ البَيتِ وَالكَعبة،

بَركَ دُونَ حِرَاكٍ، وَإِذا اتَّجه نَحو طَريق مَسيره - اليَمن - قَامَ وَسَار وَهَرول، أوْ أيِّ مَكَان غَير الكَعبة، وَفِي ذَلك يَقولُ الشَّاعر الجَاهليّ (أُمية بن أَبي الصَّلت)[63]:

وَمن صُنعِهِ يَومَ فيلِ الحَبوش ... إذ كُلُّ ما بَعَثوه رَزَم
مَحاجنُهم تَحتَ أَقرابِهِ ... وقَد شَرَموا أَنفَهُ فانخَرم
وقَد جَعلوا سوطَهُ مِغولاً ... إذا يَمَّموهُ فَفاه كلم
فَوَلّى وأَدبَر أَدراجَهُ ... وقَدْ بَاءَ بالظُلم مَن كَانَ ثم
فأرسل مِن فَوقَهُم حاصِباً ... فَلفَّهمُ مِثلَ لفِّ القَزَم
تَحضُّ عَلى الصّبرِ أَحبارهُم ... وقَد ثأَجوا كثُؤاجِ الغَنَم

فَأُميَّة فِي وَصفِ (الفِيل) يَذكرُ أَدقَّ أَوصَافِ مَا يُستَخدم لَهُ فِي أَثنَاء قِيَادَتِهِ، مَع العِلم بأنَّ العَرب فِي الجَزِيرة العَرَبيَّة عِلمهم بِحَيوَان الفِيل قَليل، بَلْ نَادرٌ لأَسبَابٍ جُغرَافيّة وَمناخِيّة، فَيصفُ المِحجنَ الَّذي يُقادُ بِهِ، وَكَأنَّ أُميَّة شَاهدُ عِيَان، يُعَاينُ مَا يَرى بِالعَينِ ثُمَّ يُحَاكِيه بِالكَلماتِ والصُّور الشِّعرية، فَفِي ذَلك يَقول (الجاحظ): "وَمِن أَعَاجِيب الفِيلِ أنَّ سَوطَهُ الَّذي بِهِ يُحثُّ وَيُصرف، مِحجَنُ حَدِيدٍ، طَرفه فِي جَبهَتِهِ، والطَّرفُ الآخر فِي يَدِ رَاكِبِه، فَإذا أَرَادَ مِنهُ شَيئاً، غَمزَ تِلك الحَديدة فِي لَحمِهِ عَلى قَدرِ إِرَادَتِهِ لِوُجوه التَّصرف"[64]؛ فَهذه الأَبيات الشِّعرية فِي تَسجِيلها وَوَصفها الحَادِثة وَخَاصة الفِيل، تُعتَبرُ وَثِيقة تَاريخيَّة تُضَافُ إِلى سَابِقتِها مِن الأَشعار الجَاهِليَّة الَّتي صَوَّرت الغَزو. وَيَقولُ (أميّة) فِي مَوضعٍ آخر مِن دِيوَانه فِي تَصوير حَالة الفِيلِ، فَهو عَاجز عَن القِيَام يَحبُو عَلى رُكبَتيْه، وَكَأنَّ أَعصَابَه وَأَرجله قَدْ قُطِعتْ، وَالشَّاعرُ - أَيضاً فِي هَذِه الأَبيَات إِضَافة لِتِلك الدِّلالة الَّتي تَصفُ الفِيل - يَرفضُ "أيَّ دِينٍ غَير الحَنَفيَّة"[65]، وَيَعتبره عَملاً بُوراً لا فَائدة مِنهُ، فَيقولُ[66]:

إِنَّ آياتِ رَبِّنا باقياتٌ ... ما يُماري فيهِنَّ إِلا الكَفورُ
خَلَقَ اللَيلَ وَالنَهارَ فَكُلٌّ ... مُستَبينٌ حِسابَهُ مَقدورُ
ثُمَ يَجلو النَهارَ رَبٌ كَريمٌ ... بِمَهاةٍ شُعاعُها مَنشورُ

حَبَسَ الفيلَ بالمغمس حَتى ظَلَّ يَحبو كَأَنَهُ مَعقورُ
لازِماً حَلقَةُ الجِرانِ كَما قُطِّرَ مِن صَخرٍ كَبكَبٍ مَجدورُ
حَولَهُ مِن مُلوكِ كِندَةَ أَبطا لٌ مَلاويثُ في الحُروبِ صَقورُ
خَلَّفوهُ ثُمَّ اِبذَعَرّوا جَميعاً كُلّهُم عَظمُ ساقِهِ مَكسورُ
كُلُّ دينٍ يَومَ القِيامَةِ عِندَ اللَهِ إِلّا دينَ الحَنيفَةِ زورُ

وَذَكر (الطُّفَيل الغَنويّ) - فِي قَصيدة غَزَليَّة طَويلة - المَوقع الَّذي عَصى فِيه الفيلُ الأَشرم؛ حيثُ مثَّل هَذا العِصيان آية مِن آياتِ الله فِي إِثبَات قُدرَتِهِ، ويقول الجاحظ في مناسبة الأبيات: "وإنما قال ذلك طفيل لأنَّ غنيا كانت تنزل تهامة، فأخرجتها كنانة فيما أخرجت "[67]. فَيقولُ الغنوي[68]:

هَل حَبلُ شَمّاءَ قَبلَ البَينِ مَوصولُ أَم لَيسَ لِلصّرمِ عَن شَمّاءَ مَعدولُ
أَم ما تُسائِلُ عَن شَمّاءَ ما فَعَلَت وَما تُحاذِرُ مِن شَمّاءَ مَفعولُ
إِذ هِيَ أَحوى مِنَ الرَّبعِيِّ حاجِبُهُ وَالعَينُ بِالإِثمِدِ الحارِيِّ مَكحولُ
تَرعى مَنابِتَ وَسمِيٍّ أَطاعَ لَهُ بِالجِزعِ حَيثُ عَصى أَصحابَهُ الفيل
بانَت وَكانَت إِذا بانَت يَكونُ لَها رَهنٌ بِما أَحكَمَت شَمّاءَ مَبتولُ
إِن تُمسِ قَد سَمِعَت قيلَ الوُشاةِ بِنا وَكُلُّ ما نَطَقَ الواشونَ تَضليلُ
فَما تَجودُ بِمَوعودٍ فَتُنجِزَهُ أَم لا فَيَأسٌ وَإِعراضٌ وَتَجميلُ
فَإِنَّ قَصرَكِ قَومي إِن سَألتِهِمُ وَالمَرءُ مُستَنبَأٌ عَنهُ وَمَسؤولُ
إِنّي وَإِن قَلَّ مالي لا يُفارِقُني مِثلُ النّعامَةِ في أَوصالِها طولُ
تَقريبُها المَرَطى وَالجَوزُ مُعتَدِلٌ كَأَنَّها سُبَدٌ بِالماءِ مَغسولُ

وَتجدُ الدِّراسة أنَّ مِن عَظِيم القُدرة أنْ يُؤخذَ مَن استَعزَّ بِالفِيلِ، وَهو أَضخمُ حَيَوان مِن ذَوات الأَربع جِسماً وَيهلكُ، بِطيرٍ صَغيرٍ، حَيثُ سَاقه القَدرُ بِسببِ التَّعنتِ والصَّلف الَّذي ظَهر بِه الأَشرم. لا رَيبَ عِند العَاقل أنَّ هَذا أَكبرُ، وَأعجبُ، وَأبهرُ فِي هَذه الحَادِثةِ!! وَبِذَلك تَكونُ سُنَّة الله لَيستْ فَقط هِي مَا عَهده البَشر وَما عَرفوهُ، وَما يَعرف البَشر مِن سُنةِ اللهِ إِلَّا طَرفاً يسيراً، يَكشِفه الله

لَهم بِمقدَار مَا يُطِيقون، وَبِمقدارِ مَا يَتَهيؤونَ لَهُ بِتَجَاربهم وَمَداركهم فِي الزَّمن الطَّويل، فهذه الخوارق هِي مِن سُنة الله، وَلكنَّها خَوارقُ بِالقِياس إِلى مَا عَهِدُوه وَمَا عَرفوه! فَجَريان قَدرِ الله عَلى هَذا النَّحو خَارقة، بَلْ عِدّة خَوارق كَاملة الدِّلالة عَلى القُدرة والتَّقدير، وَلَيستْ بِأقل دِلالة وَلا عَظَمة مِن أنْ يُرسلَ الله طَيراً خَاصاً، يَحملُ حِجارة خَاصة، تَفعلُ بِالأَجسَامِ فِعلاً خَاصاً فِي اللَّحظة المُقرَّرة.

رَابعاً - صورة دُعَاء أَهلِ مَكَّة فِي مُوَاجهة الحَملة:

وَمِن الشِّعر الَّذي تَنَاولَ حَملةَ الأَشرم، مَا يَحملُ دِلالة الدُّعاءِ والتَّضرع للخَالِق، أَنْ يَكشفَ هَذه الغُمَّة، هَذا الشِّعر فِي مُجمَله يُروى (لِعبد المُطَّلب بن هَاشم)، فَفِيه يَتوجّه إلى رَبِّ البَيتِ، عزَّ وَجل، بأن يَحميه مِن كَيد الأَحبَاش، وَأن يَردَّهم عَن بيتِهِ وَكَعبَتِه، لأنَّ لا طَاقة لأهلِ مَكَّة بِهذا الجَيش، فَلا قُوة لَهم فِي هَذا المَوقف إلَّا الدُّعاء، فَيقول وَهو مُمسكٌ بِبَاب الكَعبةِ[69]:

يَا ربِّ لا أَرْجُو لَهُمْ سِوَاكَا ... يَا ربِّ فامْنَعْ مِنهُمُ حِمَاكَا
إِنَّ عَدُوَّ البَيْتِ منْ عَاداكَا ... إِنَّهُمُ لَنْ يَقْهَرُوا قُواكَا

ومن ذلك قوله أيضاً[70]:

لا هَمّ إن العَبْد يمنع ... رَحْلَه فامْنَع حِلالَكْ
لا يَغْلِبَنَّ صليبُهُم ... وَمِحَالُهم غَدْواً مِحَالَكْ
فلِئنْ فَعَلْتَ فربمَا ... أَوْلَى فأمْر ما بدا لَكَ
وَلِئن فَعلت فَإِنَّه ... أمرٌ تَتِمُّ بِهِ فِعَالِك
عَمَدوا حِمَاك بِكَيْدِهِمْ ... جَهْلاً وما رقَبُوا جَلالَك
إِنْ كُنتَ تَاركهم وكعبَتَنَا ... فَأمْرٌ مَا بدَا لَكْ

وقال أيضاً في موضع آخر[71]:

وكُنْتُ إِذَا أتى باغٍ بِسَلْمٍ ... نُرَجِّي أن تَكُونَ لَنَا كَذلِكْ
فَوَلَّوْا لَمْ يَنالُوا غَيْرَ خِزْيٍ ... وكانَ الحَيْنُ يُهْلِكُهُمْ هُنَالكْ

وَلَمْ أسْمَعْ بأرْجَسَ مِنْ رِجالٍ أرَادُوا العِزَّ فانْتَهَكُوا حَرامَكْ
جـــرُّوا جُـــمُـــوع بِـــلادِهِـــم والـفـيـل كـي يَـسْـبُـوا عِـيَـالَـكْ

فـ (عَبد المُطَّلب) فِي هَذه الأَبيات يُسلّم الأَمرَ لله – عزَّ وَجل – القَادر القَاهر الَّذي لا يَقفُ فِي وَجهِهِ أيُّ قُوةٍ مَهمَا كَانت، وَهو بِهذا الدُّعاء يُلخِّص الحَدث الرَّهيب، وَيختزلُه بِلفظِ شِعريّ – يَا ربِّ لا أرْجُو لَهُم سِوَاكَا/ يَا ربِّ فامْنَعْ مِنهُمُ حِمَاكَا – لأَنَّه الأَقدر فِي مُعتقد (عَبد المُطَّلب) فِي مُواجهة الأَشرم وَجِيشِهِ، قَبلَ أنْ يُحقِّق هَدفه المَاثل بِهدم الكَعبةِ، لِذَلك عَبَّر عَنهُ فِي سِياقه الشِّعري بَأساليب مُختلفة مِنها "عَدُوَّ البَيْتِ/ منْ عَاداكَا/ فامْنَعْ مِنهُمُ حِمَاكَا/ عَمَدوا حِمَاك/ انْتَهَكُوا حَرامَكْ".

فَلفظ الدُّعاء الَّذي رَكَّز عَليه (عبد المطلب) فِي بِناء أَبيَاتِه "يَا ربِّ" أدَّى فِي الجَانبِ الأُسلوبيّ والشُّعوري إِلى إِيقاظ ذِهن المُتلقي، وَتَنبِيهه لِمَا سَيأتي، فَالأُسلوب النِّدائِيّ التَّحَببي وَما صَاحبه مِن قَرائن شَحن الدِّلالات بِطَاقات مَعنويّة كَبيرة تُعبِّر عَن حَالة الصِّراع بَينَ أَهلِ مَكَّة وَجيشِ الأَشرم، أوْ بَينَ الخَيرِ والشَّر، فَالشَّرُّ يُمثِّلُ مَطامع الأَشرم وَنَوازعه الاستِعمَاريَّة، والاَقتِصَادِيَّة، والدِّينيَّة، أمَّا الخَير فمَاثلٌ فِي أَهلِ مَكَّة وَحِفَاظهم عَلى قُدسيَّة المَكَانِ، وَقُدسيَة بَيتِه وَأهلِهِ، فـ(عَبد المُطَّلب) بِالدُّعاء يَتوقُ إِلى مَعرِفةِ نِهَايةِ الحَملَةِ، وَكيف سَتَنتهي فِي ظِل العَجز العَربي، والقَبلي فِي مُواجهة هَذا الجَيشِ.

خامساً - صورة المتواطئين في الحملة من العرب

أصْبح لأَبي رُغَال فِي الشِّعر الجَاهليّ، وَمَا بَعده مِن شِعر صَدى، يُمثّل الخِيَانة والتَّواطؤ مَع الأَجنبيّ الدَّخيل، الَّذي يُريد أَنْ يَهدمَ كَرامة الأُمة، وَمِن ذَلك قَول الشَاعر الجاهلي أميَّة بن أبي الصَلتِ[72]:

وَأَلْقَيْنَا الرّماحَ، وكانَ ضَرْبٌ يَكبّ على الوُجُوهِ الدّارِعِينَا
نَفَوْا عن أَرْضِهِمْ عَدْنَانَ طُرّاً وَكَانُوا بالرَّبَابَةِ قَاطِنِينَا
وَهُمْ قَتَلُوا السَّبيّ أَبَا رُغَالٍ بِنَخْلَةَ حِينَ إِذْ وَسَقَ الوَطِينَا

وَرَدّوا خَيلَ تُبّعَ في قَديدٍ وساروا لِلعِراقِ مُشَرِّقِينَا
وبُدّلَتِ المَساكِن مِن إيادٍ كِنانَة بَعْدَمَا كَانُوا القَطِينَا
نَسِيرُ بِمَعْشَرٍ: قَوْمٌ لِقَوْمٍ وَنَدْخُلُ دارَ قَوْمٍ آخَرِينَا

ومَا رَجْمُ العَرب لِذلك القَبر إلَّا تَعبيرٌ عَنْ السُّخطِ عَلى المُتعَاملين مَع العَدو، والمُتَخَاذِلين أَمَامَه، لِذَلك أَصبَحَ أَبو رُغَال عِند الشَّاعر الجَاهليّ - كَمَا هُو وَاضحٌ عِندَ أُميَّة بن أَبِي الصَّلتِ - يُمثّلُ صُورة دَنِيئة رَخِيصة لَا قِيمة لَها، فَهُو سَبيٌّ، فَصُورته على الرّغم من ذَلك هِي مِثال لِكلِّ عَربيّ خَائن، سَار فِي جَيش أَبرهة، وَهو رَاضٍ عَن هَدم البَيتِ. وَهَذِه الصُّورة القَبيحة، يَنْقلها الشَّاعر المُخَضرم (حَسَّان بن ثَابت)، لَكنَّه يُلبِسها لباس الشُّمول لِكلِّ مَن اتَّصل بِأَبي رُغَال، وَخَاصة قَبيلته ثَقيف، فيقول[73]:

إذا الثَّقَفِيُّ فاخَرَكُم فَقولوا هَلُمَّ فَعُدَّ شَأنَ أَبي رغَالِ
أَبوكُم أَلأَمُ الآباءِ قِدماً وَأَولادُ الخَبيثِ عَلى مِثالِ
مِثالُ اللُّؤمِ قَد عَلِمَت مَعَدٌّ فَلَيسوا بِالصَّريحِ وَلا المَوالي
ثَقيفٌ شَرُّ مَن رَكِبَ المَطايا وَأَشباهُ الهَجارِسِ في القِتالِ
وَلَو نَطَقَت رِحالُ المَيسِ قالَت ثَقيفٌ شَرُّ مَن فَوقَ الرحالِ
عَبيدُ الفِزرِ أَورَثَهُم بَنيهِ وَآلى لا يَبيعُهُمُ بِمالِ
وَما لِكَرامَةٍ حُبِسوا وَلَكِن أَرادَ هَوانَهُم أُخرى اللَيالي

فَحَسَّان بن ثَابت على الرّغم من أَنَّه شَاعر مُخَضرم، حَكَمته مَعَايير اجتِمَاعية فِي هِجَائه، كَان لَهَا الأَثر البَالغ فِي الفَردِ، وَالجَمَاعة فِي الجَاهِليّة وَالإسلام، فَأبو رُغَال وَقَبيلته يُمَثِّل لَهُ الضَّعفَ، والخِيَانة، والاستِكَانة مِن أَجلِ استِبَاحة الأَرضِ العَرَبيَّة، وَمَا عَليهَا مِن قُدسيَّة، وَلِذَلك تَوسَّع (حَسان) فِي هِجائِهِ لأبي رُغَال وَقَبِيلته عَلى حَدٍّ سَوَاء (ثَقيفٌ شَرُّ مَن رَكِبَ المَطايا)/ (أَبوكُم أَلأَمُ الآباءِ قِدماً). فَالهِجَاء فِي الأَبياتِ الشِّعريّة جَاء مُرتَبطاً بِالمَاضِي والسَّوداويَّة التَّاريخية لِهَذه القَبيلة وَشَخص أَبي رُغَال الَّذي يَنتَمي إِليها هَذا مِن جَانبٍ، وَفِي الجَانبِ الآخر يَرتَبطُ هِجَاؤُه بِالحَاضرِ الَذي يَعِيشه حَسَّان؛ حَيثُ مَوقف ثَقِيف

السَّلبيّ مِن دَعوة الرَّسول – عَليه السَّلام – فَحَسان بِهَذا الهِجَاء كَمَا يَقول (القَيسيّ): "يَحُطُّ مِن قِيمة المَهجو اجتمَاعِياً، وَإنسَانِياً مِن خِلالِ نُقاط ضَعفِهِ" (74).

الخاتمة

بينت الدراسة أن هذا جل الشعر الذي قيل في حملة الأشرم على مكة، وهذا الشعر الذي قيل في مواكبة الحملة ورافقها منذ البداية وحتى النهاية لا يخرج من الجانب الكمي والشكلي عن أبيات قليلة أو مجموعة أبيات قصيرة لها بداية ونهاية، تتناول الحدث وتركز على جانب من جوانبه؛ حيث تتناثر هذه الأبيات في بطون مصادر الأدب والسير والتاريخ وبعض دواوين الشعراء الجاهليين المعروفين، فلا توجد أبيات أو قصيدة كاملة في وصف هذه الحادثة، ولا توجد أي قصيدة سار أصحابها على نهج الشعراء الجاهليين في البناء الشعري المتعارف عليه في ذاكرتهم الجمعية. فهو شعر – في مجمله – لا يعطي صورة كاملة وشاملة عن الأحباش، فلم أجد تصويراً لهم يخرج من عمق نفس الشاعر الجاهلي ورؤيته الذاتية، ولم يظهر الشعراء أثر الحملة في تغيير الواقع وبلورة الوعي العربي في مواجهة التحدي الذي يحدق بهم من كلِّ مكان.

ومما يلاحظ على هذا الشعر أنه ينسب لمجموعة من الشعراء المغمورين ولم يذكرهم الأدب القديم أنهم من فحول الشعراء مثل عبدالله بن الزبعرى، وأمية بن الصلت، ونفيل بن حبيب، والطفيل الغنوي، وعبدالمطلب بن هاشم، وقيس بن الأسلت. وثمة أمر مهم تجده الدراسة يتمثل بغياب الشعراء الفحول عن مسرح الأحداث في هذه الحملة، فهذا الغياب مرجعه أن الحملة سارت بطريق تبعد عن أماكن سكنهم ووجودهم؛ فخبر الحملة يحتاج إلى وقت حتى يصلهم وهذا الذي لم يحدث، وهناك سبب آخر يرتبط بالسبب الأول هو أن هذه الحملة قد تمت في وقت قصير، فكانت سرية، وهذا مرجعه خوف الأشرم من التمرد العربي في اليمن على الرغم من إعلانه السبب الرئيس للحملة، الماثل بهدم الكعبة، لكنه خوف كان يتمركز في التكتل العربي لو طالت حملته، ولهذا

لجأ إلى السرعة، والسرية، والتكتم على حركة الجيش، واختار أقصر الطرق المؤدية إلى مكة.

والشعر الذي قيل في هذه الحملة وصاحبها يثبت أيضاً أنَّ الحملة تمت دون مقاومة عربية فاعلة إلا ما ندر، حيث وقف أمامها أعداد قليلة من أفراد بعض القبائل العربية الذين يقعون في طريق مسيرها، لكنَّ هذه القوة لا قيمة لها في ميزان قوة جيش الأشرم العسكرية المنظمة، هذه الأعداد العربية المقاتلة وإن قاومت فإنها تدافع في المقام الأول عن مصلحتها الذاتية الشخصية، وما حديث عبد المطلب مع الأشرم في ردِّ إبله، وماله إليه إلا أكبر دليل على ذلك، ولهذا لجأ في مقاومته إلى الدعاء والتضرع إلى الله في حماية البيت من كيد الأشرم وجيشه، عندها ظهرت القوة التي لم تكن في حسبان الأشرم في الوقت المناسب؛ حيث الطير التي تهزم هذا الجيش فكانت معجزة ربانية يبصرها أهل مكة على الرغم من شركهم، وهذا الأمر الرباني يتعارض مع الاعتقاد الوثني السائد في الجزيرة لهذا عزف الشعراء الجاهليون الفحول عن ذكر هذه الحادثة في أشعارهم وأحاديثهم اليومية مما جعلها في نفوسهم طي النسيان.

الهوامش والمراجع

(1) النجار، محمد بن عبدالعزيز: **ضياء السالك إلى أوضح المسالك**، الطبعة الأولى، مصر: د.مكان، 1491هـ/ 1981م، ص 129.

(2) ابن فارس، أبو الحسين أحمد (ت 395هـ): **الصَّاحبي فِي فِقه اللُّغة**، تحقيق: أحمد صقر، د. طبعة، القاهرة: مطبعة عيسى البابي، الحلبي، 1977م، ص 57.

(3) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي (ت255هـ): **كتاب التربيع والتدوير**، تحقيق: شارل بلات، الطبعة الأولى، دمشق: المعهد الفرنسي للدراسات العربية، 1955م، ص62.

(4) الرَّاغب الأصفهانيّ، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت 502هـ): **مفردات غريب القرآن**، د.طبعة، الجزء الثامن، مصر: تمَّ التحقيق والإعداد بمركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار ومصطفى الباز، د. تاريخ، ص 609.

(5) سورة آل عمران، الآية 96.

(6) مفردات غريب القرآن، الجزء الأول، ص 74.

(7) الزجاجي، أبو القاسم عبدالرحمن بن إسحاق البغداديّ النهاونديّ (ت 337هـ): **أخبار أبي القاسم الزجاجي**، طبعة مصورة دون تحقيق، الجزء الأول، د. تاريخ، د. مكان، ص 57.

(8) الأنباريّ، أبو بكر محمد بن القاسم(ت 328هـ): **الزّاهر في معاني كلمات النّاس**، تحقيق: حاتم صالح الضامن، الطبعة الأولى، الجزء الثاني، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1992م، ص 85.

(9) الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي (ت 626هـ): **معجم البلدان**، الجزء الخامس، د. طبعة، بيروت: دار الفكر، د. تاريخ، ص 182.

(10) مذحج: كلمة تدل على معنى قبيلة، وتدل أيضاً على معنى اسم رجل، وتدل كذلك على معنى السَّحج والجرّ وهو الذي يتطابق مع دلالة المَكّ، كما ذكر صاحب اللسان في باب (ذحج).

(11) النُّويريّ، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت 733هـ): **نهاية الأرب في فنون الأدب**، د. طبعة، الجزء الأول، مصر: نسخة مصورة من طبعة دار الكتب، منشورات وزارة الثقافة، د. تاريخ، ص 314. ويقول يحيى بن شرف النَّووي: " مكَّة وبكَّة لغتان عند جماعة، وقال آخرون: مكَّة الحرم كلّه، وبكَّة المسجد خاصة، حكاه الماورديّ عن الزّهريّ، وزيد بن أسلم، وقِيل مكَّة اسم البلد، وبكَّة اسم البيت، حكاه عن النّخعيّ وغيره، وقيل مكَّة اسم البيت وموضع الطَّواف، وسميت بكَّة لازدحام النَّاس بِها يبكي بعضهم بعضاً، أي يَدفع في زحمة الطَّواف، وقال الليث: لأنَّها تَبُكُّ أعناق الجبابرة بأي تدفعها، والبَكُّ الدَّق، وَسميت مكَّة لقلة مَائها". ينظر ذلك: النووي، يحيى بن شرف بن مري أبو زكريا (ت 676هـ): **تحرير ألفاظ التنبيه**، تحقيق: عبدالغني الدّقر، الطبعة الأولى، دمشق: دار القلم، 1408ه، ص 134.

(12) آل مشرف، محمد بن عبد الوهاب بن سليمان: **مختصر سيرة الرسول، صلى الله عليه وسلم**، الطبعة الأولى، لبنان، بيروت: دار الكتب العربية، 1375م، ص 298 – 303.

(13) ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، الطبعة الثالثة، الجزء الثالث، تونس: الدار التونسية للنشر، 1984م، ص 231.

(14) مهران، محمد بيومي: **تاريخ العرب القديم**، د. طبعة، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، د. ت. ص 34 – 38.

(15) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت 276): **كتاب المعارف**، بغداد: نسخة مصورة في مكتبة بغداد، دون تاريخ، ص 26.

(16) الشبيتي، جريدي سليم المنصور: **شاعرية المكان**، الطبعة الأولى، جدة: مطابع شركة دار القلم، 1992م، ص 27.

(17) البطليوسي، عبدالله بن محمد بن السيد: **الاسم والمسمى**، تحقيق: أحمد فاروق، الطبعة الأولى، دمشق: مجلة مجمع اللغة العربية، 1972م، ص333.

(18) القرطاجني، أبو الحسن حازم بن محمّد: **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، تحقيق: محمد الحبيب بن خوجة، الطبعة الثانية، لبنان: 1981م، ص 17.

(19) معجم البلدان، ج3/ 228 227.

(20) معجم البلدان (الغمر).

(21) بطي، رفائيل: **سحر الشعر**، الطبعة الأولى، الجزء الأول، مصر: المطبعة الرَّحمانيّة، 1922م، ص 59.

(22) شريعة، خليل عبدالكريم: **الجذور التَّاريخية للشريعة الإسلامية**، الطبعة الأولى، مصر: دار سينا، 1990م. ص: 15.

(23) الزَّوزني، أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن الحسين(ت 486هـ): **شرح المعلقات السبع**، الطبعة الأولى، لبنان: دار بيروت، 1، 1406هـ/ 1986م، ص 55.

(24) الداية، فايز: **علم الدلالة العربي**، الطبعة الأولى، دمشق: دار الفكر العربي، دون تاريخ، ص77 وما بعدها.

(25) ينظر: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت310هـ): **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، الجزء الثاني، لبنان، بيروت: دار سويدان، 1967م، ص 132 – 139.

(26) سميت القُليس كما يذكر ابن منظور وأصحاب المعاجم لارتفاع بنائها، ينظر: ابن منظور: مادة (قلس).

(27) ابن الكلبي، هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت 204هـ): **كتاب الأصنام**، تحقيق: أحمد زكي، الطبعة الأولى، مصر، القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، 1965م، ص50.

(28) داوود، أحمد يوسف: **الميراث العظيم**، الطبعة الأولى، دمشق: دار المستقبل، 1991م، ص 255.

(29) العراقي، جواد علي: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، الطبعة الثالثة، الجزء الثالث، بغداد: دار العلم للملايين، 1960م، ص 517.

(30) تاريخ الرسل والملوك، الجزء الثاني، ص32، والسيرة النبوية، الجزء الأول ص42، **والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، الجزء الثالث، ص 517.

(31) التربيع والتدوير، ص: 51.

(32) تاريخ الرسل والملوك، الجزء الثاني، ص 132.

(33) السيرة النبوية، الجزء الأول، ص42.

(34) تاريخ الرسل والملوك، الجزء الثاني، ص 134.

(35) تاريخ الرسل والملوك، الجزء الثاني، ص 134.

(36) تاريخ الرسل والملوك، الجزء الثاني، ص 134.

(37) تاريخ الرسل والملوك، الجزء الثاني، ص 134.

(38) السكري، أبو سعيد(ت 275هـ): **شرح أشعار الهذليين**، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج، الطبعة الأولى، الجزء الأول، مصر، القاهرة: مكتبة دار العروبة، دون تاريخ، ص389.

(39) سورة الفيل.

(40) الأسعد، سامي: "مفهوم المكان في المسرح المعاصر"، **مجلة عالم الفكر**، الكويت: العدد الرابع، مجلد 15، 1985م، ص95.

(41) أدونيس، علي أحمد سعيد: **الشعرية العربية**، الطبعة الأولى، لبنان: دار الآداب، 1985م، ص10.

(42) الخادم، سعد: **الفن الشعبي والمعتقدات السحرية (سلسلة الألف كتاب)**، الطبعة الثانية، مصر، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، دون تاريخ، ص 2.

(43) ابن حبيب، مُحمد بن حبيب البغدادي (المتوفى سنة 245هـ/ 859م): **الْمُنَمَّقُ فِيْ أَخْبَارِ قُرَيْشٍ**، تحقيق: خورشيد أحمد فاروق، الطبعة الأولى، لبنان، بيروت: عالم الكتب، 1965م، ص70 – 71.

(44) الجرجاني، أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن الجرجاني (ت 471هـ): **دلائل الإعجاز**، تحقيق: محمود شاكر، الطبعة الثانية، مصر، القاهرة: مكتبة الخانجي (ومطبعة المدني)، 1989م، ص263.

(45) الكبيسي، طراد: "في الشعرية العربية"، **مجلة الأقلام**، الأردن، عمّان: العدد 11– 12، 1993م، ص7.

(46) مكلش، أرشيبالد: **الشّعر والتَّجربة**، ترجمة: سلمى الخضراء الجيوسيّ، الطبعة الأولى، لبنان، بيروت: دار اليقضة العربية، 1963م، ص77.

(47) المنمق في أخبار قريش، ص 71 70.

(48) قدامة، أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي(ت 337هـ): **نقد الشعر**، تحقيق: كمال مصطفى، الطبعة الثالثة، مصر، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1973م، ص134.

(49) المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسين المرزوقي (ت421هـ): **شرح ديوان الحماسة**، تحقيق: أحمد أمين، وعبدالسلام هارون، الطبعة الأولى، الجزء الأول، مصر، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف للترجمة والنشر، 1951م، ص9.

(50) ابن طباطبا، محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي (ت 322هـ): **عيار الشعر**، تحقيق: محمد زغلول سلام، الطبعة الأولى، مصر، الإسكندرية: منشأة المعارف، 1977م، ص 161.

(51) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت276هـ): **الشعر والشعراء**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الطبعة الأولى، الجزء الأول، مصر: دار المعارف، 1982م، ص84.

(52) مروج الذهب، الجزء الثاني، ص128.

(53) المكاوي، عبدالغفار: **ثورة الشعر الحديث**، الطبعة الأولى، الجزء الأول، مصر: الهيئة المصرية للكتاب، 1972م، ص48.

(54) المنمق في أخبار قريش، ص 71 70.

(55) الصائغ، عبدالإله: **الصورة الفنية في شعر الشريف الرضي (ضمن كتاب الشريف الرضي**

دراسات في ذاكرة الألفية)، الطبعة الأولى، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1985م، ص 54.

(56) المنمق في أخبار قريش، ص 78.

(57) الدروبي، سامي: **علم النفس والأدب**، الطبعة الأولى، مصر: دار المعارف، 1971م، ص 8.

(58) عساف، ساسين: **الصورة الشعرية ونماذجها في إبداع أبي نواس**، الطبعة الأولى، لبنان، بيروت: المؤسسة الجامعية، 1982م، ص27.

(59) السيرة النبوية، الجزء الأول، ص 52.

(60) السيرة النبوية، الجزء الأول، ص 52.

(61) السيرة النبوية، الجزء الأول، ص50 – 51.

(62) السيرة النبوية، الجزء الأول، ص 52.

(63) أبي الصَّلت، أمية بن أبي الصَّلت الثقفي (ت 626م): **الديوان الشعري**، تحقيق: عبدالحفيظ السطلي، الطبعة الثانية، دمشق: المطبعة التعاونية، 1977م، ص 495.

(64) الجاحظ أبو عثمان عمر بن بحر، (ت 355هـ): **كتاب الحيوان**، تحقيق: عبدالسلام هارون، الطبعة الثالثة، الجزء الثاني، لبنان، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1388هـ/ 1969م، ص152.

(65) تيزيني، طيب: **مقدمات أولية في الإسلام المحمدي الباكر: نشأة وتأسيساً (الجزء الرابع من مشروع الرؤية)**، الطبعة الأولى، دمشق: دار دمشق، 1994م، ص285 – 288 . . . . . والحنفية هم دعاة التوحيد المناوئون للتعددية الإلهية، مثلهم مثل النصارى واليهود.

(66) ديوان أبي الصلت، ص 392 – 393.

(67) كتاب الحيوان، الجزء الثاني، ص 152.

(68) الغنويّ، طفيل بن عوف الغنوي: **الديوان**، تحقيق: محمد عبدالقادر أحمد، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتاب الجديد، 1968م، ص 56.

(69) تاريخ الرسل والملوك، الجزء الثاني، ص134.

(70) تاريخ الرسل والملوك، الجزء الثاني، ص135.

(71) تاريخ الرسل والملوك، الجزء الثاني، ص135.

(72) كتاب الحيوان، الجزء الثاني، ص33.

(73) الأنصاري، حسان بن ثابت: **الديوان**، تحقيق: سيد حنفي حسنين، الطبعة الأولى، القاهرة: رواد المعارف، دون تاريخ، ص341 – 342.

(74) القيسي، نوري حموديّ: **الفروسية في الشعر الجاهلي**، الطبعة الثانية، مصر: دار الكتب، ومكتبة نهضة مصر، 1984م، ص255.